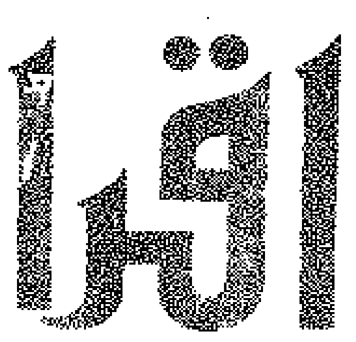
دكتور يوسف مراد

سيكولوجية الجنس



سلسلة ثقافية شهرية

1

اقرأ

[١٣٧٠]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : **منال بدران**

الدكتور يوسف مراد

سيكولوجية الجنس

الطبعة الثانية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشـاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعـوهـم هذه القـراءة إلى الاستزادة من الثقـافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

علم النفس يحل مشاكلنا

كلما تأمل المرء فى نفسه وفيما يدور حوله من أحداث واعتنى بتتبع سلوك الآخرين وبدراسة تصرفاتهم ازداد يقيناً بأن الإنسان مجموعة من المتناقضات . ومن أهم هذه المتناقضات أن يحاول الإنسان العصرى أن يلهو عن نفسه وأن يحيا حياة صاخبة متقلبة خوفاً من أن يجد نفسه أمام نفسه وفى الوقت عينه الذى يحاول فيه أن يتجنب مواجهة ذاته نراه يتلهف على معرفة نفسه وكشف أسرارها . وربما يكون الدافع إلى هذا رغبته الملحة فى كشف ما قد يمتاز به من فضائل لكى يحتفظ بحسن تقديره لنفسه ويفوز بتقدير الآخرين له .

ومن اليسير أن نلاحظ أن العلوم الطبيعية تنجح فى جذب الإنسان نحو الخارج بمخترعاتها العجيبة وبما تقدمه له من وسائل اللهو والتسلية وبما تولد فيه من رغبات جديدة وحاجات مصطنعة . ولكن يمكننا أن نقرر من جهة أخرى أن علم النفس الحديث قد ساير بخطى واسعة تقدم العلوم الطبيعية . فقد خرج من برجه العاجى حيث كان مستغرقاً فى تأملاته المجردة بعيداً

عن التجربة وعن الحياة اليومية ونزل إلى ميدان الواقع مقتحماً معظم ميادين النشاط الإنسانى ، متخذ أحياناً شكلا شعبياً مبسطاً لكى يسهل عليه الاتصال بعامة الناس ليساعدهم على إرضاء رغبتهم فى معرفة أنفسهم ويعاونهم على حل مشكلاتهم النفسية .

والواقع أن الحاجة إلى تعاليم علم النفس وإرشادات العالم النفسانى تزداد يوماً بعد يوم خاصة فى المدن الكبيرة المتحضرة حيث تكثر عوامل الصد والخذلان التى تحول دون تحقيق إمكانيات الإنسان وحاجته إلى الأمان والاطمئنان والمحبة والتقدير . وإذا أردنا أن نصف موقف الإنسان المعاصر لقلنا إنه يعانى صراعاً مستمراً . ويدور هذا الصراع بين مجموعتين من القوى ، إحداهما دافعة والأخرى مانعة ولا يقتصر هذا الصراع على الأشخاص منفردين ولكنه يشمل أيضاً الجماعات والطبقات . ومما هو جدير بالذكر أنه لا يمكن القضاء نهائياً على الصراع حتى فى الحالات التى تتوافر فيها أسباب التعاون والتفاهم ، هذا لأن ما يميز الحياة الحركة والتغير ، فهى بمثابة نظام ديناميكى يكون على الدوام فى حالة توازن غير مستقر وعلى المرء أن يواصل سعيه لكى يعيد التوازن باستمرار إذا أراد أن يحقق آماله وأن يصل إلى أهدافه .

فالإنسان لا يعيش فى عالم مادى بقدر ما يعيش فى عالم من القيم ، كالأشخاص الذين يتعامل معهم والأشياء التى تحيط به والمواقف التى تضمه ، كل هذا يكون محملا بقيمة

إما موجبة جاذبة أو سالبة منفرة وهذه القيم كما تبدو له في شعوره وتبعاً لما تكون عليه دوافعه من توتر وتنشيط هي التي توجه سلوكه وتعين اختياراته وتشكل استجاباته للأشخاص والأشياء .

والمواقف الإنسانية متعددة متنوعة تنطوي دائماً على قدر كبير أو صغير من التوتر وكثيراً ما يكون منشأ هذا التوتر مجهولا من بعض نواحيه وليست النواحي التي يدركها الشعور هي التي تؤدي الدور الهام في بعث التوتر واستمراره .

ومن المواقف الإنسانية التي تحتل المرتبة الأولى من حيث شحنتها التوترية موقف الرجل والمرأة كل من الآخر في أخطر مراحل الحياة وفي مختلف ميادين التعامل والنشاط في الأسرة والمجتمع . وسيتبين لنا أن هذا الموقف يضم في آن واحد عاملين متناقضين : الحب والكراهية ، الاطمئنان والخوف ، الإجلال والإذلال ، التعاون والتنافس ، السيطرة والخضوع ، وما إليها من الاتجاهات والعواطف التي توجه السلوك وتلونه .

ويحاول الإنسان طبعاً أن يخفف من حدة الصراع الذي يعانيه فيما بين نفسه وفيما بينه والآخرين لكي يحقق ما يعرف بالتكيف النفسي والتوافق الاجتماعي — وكلما ازداد الإنسان وعياً بالرغبات والمقتضيات المتضاربة التي تتنازعه ازداد إلحاحه في طلب المعونة والمساعدة من علم النفس الحديث الذي وفق بفضل التحليل النفسي إلى الكشف عن الدوافع اللاشعورية

وإلى وضع قواعد جديدة لعلم الصحة النفسية .

وأقوى دليل على نجاح علم النفس الحديث فى معالجة المشكلات الإنسانية الأساسية انتشار العيادات السيكولوجية فى جميع البلاد المتحضرة والعناية الفائقة التى يبذلها علماء النفس فى تفهم نفسية الأطفال والمراهقين وهم آباء وأمهات الغد . ولا تكون دراسة الأطفال والمراهقين مقصورة عليهم ، بل تشمل دائماً البيئة التى ينشأون فيها والتى يكون لها أثر بليغ فى إثارة المشكلة التى يعانيها الطفل .

وأهم عامل من عوامل بيئة الطفل الأم بلا أدنى شك . والواقع أن معظم حالات عدم التكيف وحالات الانحراف والتكيف الشاذ ، أو بعبارة أخرى معظم حالات المرض النفسى والعقد النفسية تنشأ من طبيعة الصلة القائمة ، أو التى كانت قائمة ، بين الأم وابنها فى سنى الطفولة والمراهقة . وإن كان الدور الذى يؤديه الأب قد يكون خطيراً فى نشأة العقد النفسية ، خاصة عند البنت ، غير أن الدور الهام هى الأم التى تؤديه دائماً . ولهذا السبب ستكون المرأة هى المحور الأساسى الذى ستدور من حوله دراستنا لسيكولوجية الجنس ومشكلات الزواج .

وربما يكون من المفيد أن نشير هنا بكلمة وجيزة إلى ما يسمى بالعقدة النفسية . فقد أصبحت هذه العبارة من

العبارات المألوفة التي ترد كثيراً فى المحادثات اليومية والقوم يتحدثون كثيراً عن عقدة النقص ، بل قد يقول الشخص عن نفسه إنه مصاب بعقدة النقص . والمقصود بهذه العبارة فى لغة العامة هو الشعور بالنقص إزاء الفشل والحرمان ، ثم محاولة الشخص تعويض ما يشعر به من قصور بشتى وسائل التغلب والتفوق . غير أنه يوجد فرق جوهرى بين الشعور بالنقص الذى يتحدث عنه الناس وبين عقدة النقص كما يعرفها علماء التحليل النفسى ، أى أنه يوجد فرق بين الشعور والعقدة . فالشعور حالة معروفة لدى الشخص ، حالة يدركها إدراكاً مباشراً ؛ أما العقدة النفسية فهى فى صميمها لاشعورية ، أى أن من هو مصاب بعقدة نفسية لا يشعر بها ولا يدرك طبيعتها ولا يعرف منشأها ، بل كل ما يعانيه أعراض هذه العقدة من تعب أو قلق أو خوف أو وهم أو عجز فجائى فى بعض الوظائف الحركية والحسية أو اضطراب فى بعض الوظائف العضوية من هضم وتنفس وإخراج . وعند ما يقول إنه يعانى عقدة نفسية فإنه يقول ذلك اعتماداً على ما قرأه أو سمعه ، معتبراً أن تلك الأعراض لا يمكن أن تكون إلا نتيجة حتمية لعقدة نفسية .

والعوامل اللاشعورية التى تكوّن العقدة النفسية هى تلك الاتجاهات الوجدانية المتناقضة التى تتكون فى أثناء الطفولة خلال الخبرات والعلاقات الإنسانية التى تحدث فى البيئة

العائلية . وتندمج هذه الاتجاهات فى بناء الشخصية وتتوارى عن الشعور وتصبح بمثابة المحرك الخفى الذى يدفع الشخص غير الناضج إلى أن يسلك فى المواقف الجديدة التى تواجهه مسلكاً شبيهاً بما كان يسلكه فى طفولته إزاء والديه وإخوته فى المواقف التى كانت تصدم حساسيته الناشئة ، فتنبعث الشحنات الوجدانية المكبوتة مع ما تتضمنه من متناقضات وتوترات وتعوق عملية التكيف السوى التى يقتضيها الموقف الجديد .

افترض مثلا أن شخصاً بالغاً يبدى انزعاجاً عنيفاً عند رؤية الدم ، بل ينفعل بشدة عند ذكر الدم أو الإشارة إلى حادث سفكت فيه الدماء . فمثل هذا الانفعال العنيف الغريب لا بد أن يكون مرجعه صدمة مؤلمة أصابت هذا الشخص فى طفولته ثم كبتت ذكرى هذه الصدمة لما تسببه من ألم وانزعاج ؛ غير أن الكبت لا يعنى امحاء أثر الماضى ، بل بقاء هذا الأثر بعيداً عن الشعور ومحاولته اجتياز حدود الشعور فى صورة الخوف والقلق والانزعاج مع نسيان المنشأ الحقيقى العميق لهذه الحالات الشعورية المؤلمة .

ولكن حالة الشخص الذى يعانى آثار العقد النفسية تكون أكثر تعقداً وخطراً من المثال السابق . فكثيراً ما تكون العقدة مصحوبة بعملية تثبيت الدوافع والانفعالات ، وخاصة الجنسية منها ، فى موضوع واحد هو شخص الأم أو الأب أو من يقوم

مقام كل منهما . تكون قوى النفس مثبتة ومركزة فى هذا الشخص الآخر الذى يكون بمثابة المثال أو بمثابة القطب الذى يجذب نحوه كل ما يدور حوله جذباً شديداً . ويتخذ هذا التثبيت صورة التعلق المطلق الأعمى كتعلق الابن بأمه أو البنت بأبيها أو بمن سيقوم مقامهما فيما بعد كالمدرسة أو المدرس وأحياناً الزوجة أو الزوج .

وفى مثل هذه الحالات نكون بصدد عقدة نفسية ، كالعقدة المعروفة بعقدة الأب والتى تعانيها الفتاة التى ترفض الزواج محتجة بأن أباها لا يزال فى حاجة إلى عنايتها أو مدعية أن شبان اليوم دون شبان الأمس من حيث الأخلاق والعادات . وسنبين أثر العقد النفسية فى مواقف الحياة الزوجية فى الجزء الخاص بمشكلات الزواج ، كما أننا سنشير إلى الوسائل التى يقدمها علم النفس لحل هذه المشكلات . ولكى يسهل علينا فهم هذه المشكلات وإدراك طبيعة العلاقات التى تقوم بين الرجل والمرأة فى الحياة الزوجية يجب القيام بدراسة مقارنة بين الجنسين مع التعمق فى دراسة طبيعة المرأة جسمياً ونفسياً وهذا ما سنتناوله فى الفصول القادمة .

الفصل الأول

سيكولوجية الجنس

١ — الدراسة المقارنة بين الرجل والمرأة

لم يدخل علم النفس فى دور التطبيق الواسع إلا ابتداء من الحرب العالمية الأولى . فكان اتجاهه قبل ذلك التاريخ اتجاهاً نظرياً يدرس الإنسان بصفة عامة مهتما بالشخص البالغ المتحضر ، ثم تحول الاهتمام تدريجاً نحو دراسة الطفل والمراهق والرجل البدائى الذى يعيش فى أوساط اجتماعية تختلف إلى حد كبير عن الأوساط المتحضرة .

ولما شرع علماء النفس فى تطبيق الحقائق التى وصلوا إليها فى دراساتهم المختلفة اعترضتهم صعوبة جديدة وهى وجود فوارق بين الأشخاص ، حتى بين الذين يعيشون فى بيئة اجتماعية واحدة ويتأثرون بوجه عام بنفس المؤثرات التربوية والحضارية ، ومن أبرز عوامل التفرقة بين الناس العامل الجنسى ولا شك فى أن المعتقدات والعادات والأنظمة الاجتماعية تزيد هذا العامل وضوحاً ، خاصة فى تحديد نوع الملبس والتربية والمهنة وغيرها من صور النشاط المختلفة المخصصة لجنس دون الآخر .

وبصدد موضوع الفوارق الجنسية يوجد تياران متطرفان فى الرأى . ففريق يؤكد أن الاختلافات التى نشاهدها فى المجتمع بين كل من الرجل ومن المرأة من حيث الاهتمامات والوظائف الاجتماعية ترجع إلى العوامل الوراثية التى تميز بين الجنسين وما يترتب على هذه العوامل الوراثية من خصائص جسمية ونفسية . ويذهب فريق آخر إلى القول بأن الطبيعة البشرية تمتاز بالمرونة وإنها قابلة لأن تتشكل بأى شكل يريد المربى أن يطبعه عليها حتى أن بعضهم أنكروا وجود طبيعة بشرية أولية وزعموا أن جميع الفوارق التى نشاهدها بين الأفراد سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً ترجع إلى تأثير البيئة الاجتماعية .

إن كلا من هذين المذهبين يقوم على تحيز سابق ويرمى إلى خدمة مذهب اجتماعى خاص فهو لا يعتمد على البحوث العلمية النزيهة ولا يلتزم فى تأويله لبعض الوقائع ما يجب أن يتصف به العالم من خصائص الموضوعية وروح النقد والتحرر من التعصب . وبما أن العالم العربى يجتاز فى الوقت الحاضر مرحلة دقيقة من مراحل نموّه وتطوره وخاصة أن هذا التطور فى صوره الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المختلفة يتناول المرأة وموقفها من حركات التطور فإنه يتحتم علينا أن نبحث فيما إذا كانت الفوارق الجسمية الموجودة بين الجنسين تؤثر أو لا تؤثر فى تنظيم الحياة العائلية وأساليب التربية ومختلف أوجه النشاط الاقتصادى

والاجتماعى . ولكى نضع هذه المشكلة فى صيغة واقعية ملموسة تطرح الأسئلة الآتية :

هل حرمان المرأة من ممارسة بعض المهن الخاصة الآن بالرجال يرجع إلى عدم قدرتها الفطرية على القيام بأعمال هذه المهن أو أن اعتقادنا بأنها تفتقر إلى هذه القدرة يرجع إلى أن حتى الآن لم تسمح لها الظروف وخاصة تعسف الرجل بأن تنافس الجنس الآخر فى القيام بهذه الأعمال ؟

هل ترجع النسبة الكبيرة من أساطين العلم والأدب والفن والسياسة من الرجال إلى أن فرص التعليم والبحث والتفكير والإبداع وما إليها لم تتح للنساء كما أتيحت للرجال أو أن هذا التفاوت الكبير بين الجنسين فيما يختص بعدد العباقرة يرجع أيضاً إلى ما يوجد بينهما من فوارق فطرية ؟

لماذا تميل البنت مثلا إلى بعض الألعاب دون غيرها ؟ لماذا تحب الفتاة أن تقرأ خاصة القصص الغرامية فى حين أن الصبي تجذبه قصص المغامرات ؟ هل يرجع هذان الاتجاهان المختلفان إلى ضغط البيئة أم هناك اختيار تلقائى لنوع القراءات ؟

كل هذه الأسئلة وما شابهها جديرة بأن تبحث بطريقة جدية نزيهة . يجب أن نستبعد أولا الآراء الشائعة فى الفوارق بين الجنسين فقد تكون هذه الآراء مجرد تقرير لأوضاع اجتماعية مصطنعة ، بل يجب أن تتجه شطر البحوث العلمية التى أجريت

فى هذا الميدان غير أنه ينبغى أن نذكر أن البحوث التى يمكن الاعتماد عليها حديثة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثين سنة وهى فترة قصيرة فى حياة علم معقد كعلم النفس ، وليس من السهل دائماً تأويل نتائج هذه البحوث وذلك لأسباب كثيرة منها تعدد العوامل التى تؤثر فى النمو النفسى والاجتماعى وتشابك هذه العوامل بطريقة معقدة بحيث يصعب الوقوف على مدى التأثير الذى تحدثه البيئة فى تكوين شخصية الفرد وتشكيلها ؛ ثم إن البحوث التى تجرى لقياس سمة من السمات العقلية أو صفة من الصفات الخلقية لا تتناول إلا مجموعة صغيرة من الأفراد إذا قيست بمجموع السكان ، ثم لو فرضنا أن عدد أفراد هذه المجموعة يكفى لضمان صحة النتائج فهل فى إمكاننا دائماً أن نقطع بأن هذه المجموعة تمثل حقاً المجموع الكلى ؟

ولنضرب مثلا لبعض الدراسات المقارنة التى تتناول توزيع نسب الذكاء بين الذكور والإناث . فقد دلت بعض البحوث على أن مدى توزيع درجات الذكاء أوسع فى الذكور منه فى الإناث أى أننا نجد عند طرفى السلم عدداً أكبر من الذكور أى أن درجات الإناث تميل إلى التكتل حول الوسط فى حين نجد عدداً من الذكور عند الطرف الأعلى الخاص بالعبقرية وعند الطرف الأدنى الخاص بالبلهاء والمعتوهين . ثم بالرجوع إلى عدد النزلاء فى المستشفيات العقلية وعدد الذين يعرضون

للفحص فى العيادات السيكولوجية وجد أن عدد الذكور أكبر من عدد الإناث .

هل تفسر لنا هذه النتائج التفاوت المشاهد الآن بين الجنسين من حيث التفوق فى العلوم ؟ ففريق من السيكولوجيين يؤيدون هذا الرأى فى حين أن غيرهم يرون أن الأنظمة الاجتماعية القائمة الآن تجعل التنافس بين الذكور فى مجال العمل أشد من التنافس القائم بين الإناث ويؤدى هذا التنافس الشديد إلى الكشف عن عدد كبير من ضعاف العقول فى حين أن فى إمكان ضعيفات العقول أن يجدن عملا فى مجالات لا تكون فيها المنافسة شديدة كالأعمال المنزلية مثلا .

ولا تزال المناقشة قائمة حول هذا الموضوع الهام فهناك نتائج لاختبارات سيكولوجية تؤيد الرأى القائل بزيادة تشتت نسب الذكاء فى الذكور بينما تدحض نتائج أخرى هذا الرأى وتسمح بالقول بأن الذكاء فى مجموع السكان موزع بدرجات متعادلة بين الرجال والنساء وأن التفاوت الملاحظ بينهم من حيث الإنتاج والتفوق يرجع فقط إلى الأوضاع الاجتماعية وأن تغيير هذه الأوضاع كفيل بتحقيق تكافؤ الفرص للجميع .

رأينا من واجبنا أن نلفت الأنظار إلى العقبات التى تعترض الدراسة المقارنة بين الرجل والمرأة وعلينا أن نتسلح بروح النقد العلمى النزيه فى عرض هذا الموضوع الهام إذ عليه تترتب

نتائج خطيرة فى كيفية تحقيق النظام الاجتماعى الذى يتلاءم مع طبيعة الإنسان ويضمن لكل من الرجل والمرأة السعادة الحقة .

٢ ـ الخصائص الجسمية

لسنا فى حاجة إلى أن نثبت وجود فوارق جسمية بين الجنسين فإن الاختلافات القائمة بينهما من حيث الشكل والتركيب الجسمى واضحة . هنالك اختلافات أدق من حيث الوظائف الفسيولوجية والتركيب الكيميائى للسوائل العضوية . وترجع هذه الاختلافات فى أصلها إلى التركيب الدقيق للخلايا لكل من الذكر والأنثى . فمن المعلوم أن نواة الخلية تحتوى على عدد من العوامل الوراثية المختلفة التى تعين الخصائص الجسمية ومنها الخصائص التى تميز بين الجنسين !

فإذا نظرنا مثلا فى وزن الجسم فنجد أن متوسط الوزن عند الولادة أكبر عند الذكر منه عند الإناث بمقدار ٥ ٪ وتصل هذه الزيادة عند الشهر العشرين إلى ٢٠ ٪ . غير أن سرعة النمو فى كل من الجنسين مختلفة . فالصبى يحتفظ بتفوقه فى الوزن حتى سن الحادية عشرة ثم تأخذ النسبة فى الهبوط حتى أن فى سن الرابعة عشرة تفوق البنت الصبى فى وزن جسمها بمقدار ٥ ٪ ثم يسترجع الصبى تفوقه ابتداء من سن السادسة عشرة حتى تصل نسبة التفوق إلى حوالى ٢٠ ٪ فى سن العشرين .

أما فيما يختص بطول القامة فالنمو يسير وفقاً لسير النمو فى وزن الجسم ، غير أن نسبة الزيادة أو النقصان أقل . فطول القامة عند الذكور أكبر منه عند الإناث من الولادة حتى سن الحادية عشرة ولكن بنسبة ٢ ٪ على الأكثر . ثم تنعكس هذه النسبة بين الحادية عشرة والرابعة عشرة فتفوق البنت الصبي فى طول قامتها بمقدار ٢ ٪ . ويقف النمو فى الطول لدى الفتاة حوالى سن السابعة عشرة فى حين أنه يستمر لدى الفتى حتى سن العشرين فيفوق الفتاة فى طول قامته بمقدار ١٠ ٪ .

وليس ما يدعو إلى التنبيه بأن هذه الأرقام هى متوسطات تنطبق على المجموعة ككل وقد لا تنطبق على فرد بالذات . أى أن هناك تداخل أو تطابق بين منحنيات التوزيع لمقاييس الوزن والطول وأن الاختلافات المشاهدة بين الجنسين قد توجد بين أفراد من الجنس الواحد .

وكذلك نجد الصبي يفوق البنت من حيث القوة العضلية . ويفوقها فى القوة العضلية لقبضة اليد اليمنى بمقدار ١٠ ٪ فى سن السابعة ثم تستمر الزيادة حتى سن العشرين حتى تصل إلى ٥٠ أو ٦٠ ٪ فى حين أن نمو القوة العضلية فى البنت يميل إلى التوقف عند سن السادسة عشرة . ويسير نمو القوة العضلية فى سائر الأعضاء على نفس هذا المنوال .

كما لوحظ أيضاً أن استجابة الصبي العضلية أشد منها فى

البنت فهو أميل إلى الحركة وإلى النشاط العضلى الخارجى .

وربما يرجع هذا التفاوت فى النشاط العضلى إلى الفرق الموجود بين الجنسين من حيث سعة التنفس أو ما يسميه العلماء بالمقدرة الحيوية وهى تقاس بكمية الهواء التى يحتفظ بها الشخص فى رئتيه . فالقول بأن المقدرة الحيوية عند الصبى أكبر منها عند البنت يفيد أنه يستنفد كمية أكبر من الأكسيجين وهو من مصادر الطاقة فى الجسم ، ومما يعين الشخص على مواصلة مجهوده مدة أكبر . ولا شك فى أن تفوق الصبى فى المقدرة الحيوية يفسر لنا الفوارق التى نشاهدها بين الجنسين فى اختيار ألعابهم وقدرتهم على إتمام التحصيل ومواصلة النشاط واختيار نوع هذا النشاط . فتفوق الصبى فى المقدرة الحيوية يبلغ ٧ ٪ فى سن السادسة ومن ١٠ إلى ١٢ ٪ فى سن العاشرة حتى يصل إلى ٣٥ ٪ فى سن العشرين . ومما هو جدير بالملاحظة أن النسبة بين القدرة الحيوية ووزن الجسم تكون دائماً أكبر فى الذكور وفى جميع الأعمار ، ومعنى هذا أن بالقياس إلى وزن جسمه فإن الرجل يستهلك كمية أكبر من الوقود وينتج كمية أكبر من الطاقة .

ومما لا شك فيه أن تفوق الرجل فى القوة العضلية والمقدرة الحيوية والقدرة على التحمل من العوامل الهامة التى يجب اعتبارها عند ما نتناول بالتفسير ما يلاحظ على الرجل من نزعة قوية نحو العدوان والسيطرة فى العلاقات الاجتماعية . ولكن يجب فى

الآن نفسه عدم إغفال ما قد يكون للتربية من أثر بليغ فى توجيه هذه النزعة وإعلائها .

أما فيما يختص بسرعة النمو والسير نحو اكتمال النضج نلاحظ أن البنت تفوق الصبي فى هذا المجال . ففى جميع الشعوب وفى جميع مناطق الأرض تصل البنت إلى البلوغ قبل الصبي وهى تتقدم عليه بمقدار يتفاوت بين اثنى عشرة وعشرين شهراً ، وكذلك تفوق البنت الصبي فى سرعة نمو هيكلها العظمى وفى ظهور الأسنان وفى قدرتها على المشى وسوف نرى أنها تفوقه من حيث القدرة على تعلم الكلام كما أننا نتساءل ما إذا كان سرعة النمو من الوجهة الجسمية يستتبع حتما سرعة النمو من الوجهة العقلية .

ومما هو جدير بالذكر أن تفوق البنت فى سرعة نموها يبدأ منذ الحياة الجنينية أى قبل الولادة فهى عند الولادة أكثر نضجاً من الصبي وعلى العموم تكون مدة الحمل للأولاد الذكور أطول بقليل من مدة الحمل للأولاد الإناث .

وهناك اختلاف واضح بين الجنسين من حيث التعرض للأمراض ومن حيث القدرة على مقاومة أسباب الموت . إننا نعلم أن عدد النساء فى العالم أكثر من الرجال بنسبة ٢ ٪ تقريباً وقد دلت الدراسات الإحصائية من جهة أخرى أن عدد الذكور فى المرحلة الجنينية أكبر من عدد الإناث بمقدار ٣٠ ٪ تقريباً ، غير أن حالات الوفاة فى الأجنة الذكور أكثر بكثير منها فى

الإناث ولكن على الرغم من ذلك تفوق نسبة المواليد الذكور على الإناث بمقدار ٦ ٪ تقريباً . فكيف نعلل زيادة نسبة الإناث فى مجموع السكان البالغين ؟ بالرجوع إلى كشوف الإحصاء الخاصة بعدد الوفيات تبعاً للأعمار المختلفة نلاحظ أن نسبة الوفيات لدى الأطفال الذكور أكبر من نسبتها لدى الأطفال الإناث . ومعنى هذا أن البنت الصغيرة أقل تعرضاً للأمراض من الصبى وأقدر منه على تحمل الإصابات ومقاومة الأمراض . وقد أدت الدراسة المقارنة إلى أن عوامل البيئة لاتكفى لتفسير هذا التفاوت وأن السبب المهئ له يرجع إلى العوامل الوراثية التى تعين الفوارق بين الجنسين . فالتركيب الكروموزومى للأنثى يحتوى على كروموزومين ص فى مقابل كروموزوم ص وكروموزوم س لدى الذكر والثانى أضعف من الأول . فإذا وجد فى أحد الكروموزومين ص لدى الأنثى مورث ردىء يهيئ ظهور مرض أو عاهة فقد يبطل تأثيره بفضل مورث جيد يوجد فى الكروموزوم ص الآخر ، أما فى الذكر فقد لا يوجد فى س ، وهو الكروموزوم الضعيف ، ما يقاوم أثر بعض المورثات الرديئة التى يحتويها ص[1] .

---

(١) راجع بهذا الصدد مقالنا « الجنسية من الوجهة البيولوجية فى ضوء المنهج التكاملى » الفقرة السادسة ص ٢٥ فى « الكتاب السنوى فى علم النفس » لعام ١٩٥٤ ص ٩ — ٢٨ . منشورات جماعة علم النفس التكاملى . الناشر : دار المعارف بمصر .

وهذا التفاوت بين الإناث والذكور فى القدرة على مقاومة أسباب المرض والموت يشاهد أيضا لدى الحيوانات. فالذكر بوجه عام معرض أكثر من الأنثى للإصابات المرضية والعاهات الجسمية. وربما يوجد سبب آخر لهذا التفاوت، غير السبب الوراثى، وهو أن عمليات الهدم الكيميائية الفسيولوجية متغلبة فى الذكر على عمليات البناء.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن الذكر يفوق الأنثى فى ثبات وظائفه العضوية كدرجة حرارة الجسم وعمليتى الهدم والبناء والتركيب الكيميائى ومستوى السكر فى الدم. والمدى الأكبر لاختلال الثبات النسبى فى العمليات الفسيولوجية لدى المرأة يفسر لنا كثرة تعرض المرأة للإغماء ولاختلال التوازن فى إفرازات الغدد الصماء وبالتالى للتقلبات المزاجية. وسنفصل القول فى هذا الموضوع عند كلامنا عن طبيعة المرأة من الوجهة الجسمية والنفسية.

٣ — الخصائص الحسية والحركية

أجريت التجارب فى معامل علم النفس الفسيولوجى لقياس حدة الإحساس للحواس المختلفة لدى الرجل والمرأة وأسفرت هذه التجارب عن نتائج تكاد تكون متعادلة بين الجنسين. فلا يوجد فرق يذكر فيما يختص بالإحساس بالحرارة أو بالضغط على سطح الجلد أو التقدير اللمسى لمساحة السطوح أو الإحساس

الشمي أو السمعي غير أن المرأة تفوق الرجل فى القدرة على تمييز طعم المالح والحلو والمر والحامض وهى دونه فيما يختص بالتمييز العضلى بين الأثقال . غير أن هذه الفروق طفيفة جداً ليست لها أهمية عملية . أما الفرق الواضح بين الجنسين من الوجهة الحسية فهو خاص بالإبصار وبالقدرة على تمييز الألوان . فمن الثابت اليوم أن عمى الألوان أكثر انتشاراً لدى الرجال منه لدى النساء وذلك بنسبة ٨ إلى ١ — وعمى الألوان عاهة وراثية منه العمى الكلى وهو نادر ومنه العمى الجزئى وهو أكثر انتشاراً خاصة فيما يختص باللونين الأحمر والأخضر . والشخص المصاب بعمى الألوان الكلى يدرك العالم الخارجى كما ندرك الصورة الفوتوغرافية غير الملونة والتى تحوى فقط درجات الرمادى من الأسود إلى الأبيض . أما الشخص المصاب بعمى الألوان الجزئى فإنه يرى بعض الألوان دون غيرها فلا يميز مثلا بين الأحمر والأخضر أو بين الأزرق والأصفر فيخلط بينهما . غير أنه فى حياته العادية قد لا يتأثر كثيراً بهذا النقص إذ أنه يتعرف الأشياء بخصائصها الحسية الأخرى كالشكل وخاصة درجات النصوع أى كمية الضوء الذى تعكسه الأشياء . ودرجات النصوع تختلف باختلاف الألوان كما تختلف باختلاف درجات الرمادى.

وقد يوجد أن عمى الألوان موجود فى الرجال بنسبة ٤ ٪ فى حين أن هذه النسبة فى النساء لا تفوق $\frac{1}{2}$ ٪ .

وتفوق المرأة الرجل فى القدرة على تمييز الألوان وتمييز فروق دقيقة بين درجات اللون الواحد . ويشاهد هذا الاختلاف فى البالغين من الجنسين وربما يرجع تفوق المرأة إلى كثرة تدريبها فى استخدام الألوان فى أعمال التطريز والتريكو وحياكة الملابس . غير أن هذا الاختلاف يشاهد أيضاً منذ الطفولة عند ما يقارن بين أطفال من سن واحدة من الجنسين . ويرجع تفوق البنت على الصبى فى سن واحدة إلى تقدم البنت من حيث النضج العضوى . غير أن تأخر الصبى لايستمر بالنسبة نفسها بل هو يقترب تدريجاًمن متوسط قدرة البنت ويرتفع فوق هذا المتوسط فى سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة وذلك لأن البنت فى هذه السن يوشك نموها الجسمى أن يكتمل فى حين لا يزال الفتى يواصل نموه حتى سن العشرين .

نستنتج مما سبق أن الاختلافات بين الجنسين فى المجال الحسى ضئيلة جداً فيما عدا القدرة على تمييز الألوان وحتى فى هذه القدرة الأخيرة التى تكون فيها البنت متفوقة على الصبى فإن هذا التفوق ينعكس عند سن السادسة عشرة . كما يجب أن نذكر أن هذه القدرة تتأثر إلى حد كبير بالممارسة والتمرين .

تكلمنا حتى الآن عن القدرات الحسية كل على حدة فى ضوء تجاريب خاصة تجرى فى المعمل . أما إذا انتقلنا إلى الحياة العملية التى يعتمد فيها النشاط على تضافر القدرات الحسية

والعقلية فإن المقارنة تصبح شاقة عسيرة لتدخل عدد كبير من العوامل . غير أن هنالك بعض نتائج ثابتة جديرة بالذكر . ففيما يختص بالأعمال التي تتطلب إدراكاً سريعاً للتفاصيل وانتقال الانتباه من جهة إلى جهة أخرى فإن المرأة تفوق الرجل تفوقاً ملحوظاً . وقد وجد هذا التفوق في الاختبارات التي تتطلب المقارنة السريعة بين كشفين من الأسماء أو من الأرقام . مما جعل علماء النفس يعتقدون أن المرأة أصلح من الرجل للقيام بأعمال السكرتارية والوظائف الكتابية .

أما فيما يختص بالأعمال التي تتطلب إدراك الخصائص المكانية أو تصور هذه الخصائص فإن تفوق الرجل ثابت بلا جدال وهذا يفسر لنا تفوقه في القدرات الميكانيكية . ولكن البنت الصغيرة تفوق الصبي في المهارة اليدوية فهي قادرة على ارتداء ملابسها والقيام بالحركات اليدوية الدقيقة في سن مبكرة عن سن الصبي ومن هذه الأعمال نذكر عقد العقد والفيونكات ومعالجة الأزرار ربطاً وفكاً وأشغال الخرز إلخ . . . من الأعمال التي تتطلب سرعة وحذاقة في تحريك أطراف الأصابع . وفي أثناء الحرب الأخيرة لوحظ تفوق العاملات في المصانع في الأعمال التي تتطلب سرعة الحركات ودقتها كأعمال الفرز وأعمال تركيب الأجزاء والقطع الصغيرة .

والآن ننتقل إلى مجال الألعاب الرياضية . وليس غرضنا

التحدث عن الألعاب المفضلة لدى كل جنس من الجنسين بل المقارنة بينهما فيما يختص بالقدرات الحركية فى بعض الألعاب كالسباق والقفز إلى الأمام والقفز إلى أعلى والرمى . فقد أجريت اختبارات فى جامعة كليفورنيا على مجموعة من المراهقين والمراهقات مدة ثلاث سنوات تتبع خلالها المجرب أفراد المجموعة ابتداء من سن الثالثة عشرة . وقد أسفرت النتائج عن تفوق البنين على البنات . غير أن الأمر الذى يسترعى الانتباه هو أن البنين يتقدمون باستمرار مع السن فى حين أن تقدم البنات يقف عند سن الرابعة عشرة ثم ينخفض قليلا . ويرجع هذا الاختلاف فى نسبة التقدم وشكله إلى عوامل نفسية لا مجرد عوامل جسمية كالقوة العضلية أو المقدرة على تحمل التعب الجسمى مثلا . ففى سن المراهقة تأخذ الجاذبية بين الجنسين تقوم بدورها فتدرك البنت أن مجال القوة العضلية ليس مجالها وإذا تفوقت فى هذا المجال فلن يثير هذا التفوق إعجاب زميلها كأن الأعمال العنيفة تقلل من جاذبيتها وتسيء إلى أنوثتها الناشئة . بينما يدرك الفتى أن إظهار القوة وتفوقه فى ميدان الألعاب الرياضية من العوامل التى تثير إعجاب زميلته به . ويؤدى التنافس بين المراهقين إلى زيادة حماسهم مما يجعلهم يقبلون على التمرينات الرياضية ومزاولة الألعاب التى تتطلب القوة والشجاعة .

فهنالك إذن بجانب العامل الجسمى عامل الاهتمام وتأثير

الدوافع النفسية . نعم إن ما يطرأ فى سن المراهقة من تغييرات فسيولوجية نتيجة لتنشيط الغدد الجنسية يؤثر فى بعث الاهتمامات المختلفة لدى الجنسين ، غير أنه يجدر بنا ألا ننسى العوامل الحضارية والثقافية التى قد تغير من هذه الاهتمامات أو بالعكس تعمل على تثبيتها . ولذلك يجب دائماً أن نراعى فى مقارنتنا بين الجنسين البيئة الاجتماعية الخاصة وما تتميز به هذه البيئة من معتقدات وعادات وتقاليد وستتاح لنا الفرصة للعودة إلى هذه النقطة الهامة فى كلامنا عن أثر العوامل الاقتصادية والحضارية فى تكوين الشخصية .

٤ ــ القدرات العقلية

كثيراً ما يشكو المرء من طبعه فى حين لا نسمعه إلا نادراً يشكو من ذكائه . والطالب الذى يرسب فى الامتحان يتهم الممتحن بالتحيز والتحامل عليه . وعند ما تحتد المناقشة بين شخصين ويعجز أحدهما عن إقناع الآخر فلا يجد مخرجاً للموقف سوى أن يرمى الآخر بالغباوة وعدم الفهم . والواقع أن اعتزاز المرء بذكائه وفطنته أمر ملحوظ ، وعند ما يصرح بأنه غبى فتصريحه هذا هو ضرب من الإثبات فى صورة النفى . وتشتد المفاضلة حول الذكاء بين الجنسين فالرجل يعتقد أنه أذكى من المرأة والمرأة تعزو هذا الاعتقاد ــ وهو اعتقاد خاطئ

فى نظرها — إلى كبرياء الرجل وعجرفته .

وقبل أن نحاول البت فى هذا الإشكال يجب أن نذكر أنه ليس من اليسير تعريف الذكاء ومعرفة طبيعته . هل هو قدرة عامة على التفكير المنطقى وإدراك العلاقات أم هو مجموعة من القدرات . هل يكفى للحكم على ذكاء شخص أن نجرى عليه أحد اختبارات الذكاء المعروفة وأن نقول مثلا إن نسبة ذكائه ١٠٠ أو ١١٠ أو ١٢٠ وما معنى هذا التقدير الكمى وما هو المقصود بقولنا إن فلاناً أذكى من فلان ؟

إن هذا الموضوع من أشق موضوعات علم النفس وأكثرها عرضة للتأويلات المتناقضة . فمعظم الاختبارات التى استخدمت لقياس الذكاء بقصد المقارنة بين الجنسين كانت اختبارات لفظية تعتمد فى بعض أجزائها على اختبار المعلومات ومن المعلوم أن بعض الموضوعات لا تثير الاهتمام نفسه لدى الفتى والفتاة ثم يجب مراعاة البيئة الثقافية التى تختلف فى بلد واحد متأثرة بعوامل جغرافية واقتصادية كالبيئة الريفية والبيئة الحضرية ، بيئة المناطق الجبلية فى مقابل بيئة السواحل إلخ . وحتى فى المدينة نفسها توجد بيئات مختلفة من حيث المستوى الاقتصادى ومن حيث وسائل التعليم وأساليب الترفيه وقضاء أوقات الفراغ إلخ . . .
لنأخذ مثلا الاختبارات التى أجراها العالم السيكولوجى الأمريكى المشهور ثورنديك على مجموعة كبيرة من طلبة وطالبات المدارس

العليا فى نيويورك . فقدأسفرت النتائج لثلاثة اختبارات متعادلة عن تفوق ملحوظ للطلبة على الطالبات. وقد وجدت نفس النتيجة فى تطبيق اختبار الذكاء للجيش الأمريكي المعروف باختبار ألفا . ولكن بالرجوع إلى تحليل مواد هذه الاختبارات وجد أن الفرق بين الجنسين لايقوم على فرق فى القدرة الطبيعية بل على اختلاف فى الاهتمام وفى فرص تحصيل بعض المعلومات. وعلى العكس من هذه النتائج فقد أسفرت اختبارات أخرى عن تفوق البنات على البنين وقد لوحظ أن العامل المساعد لتفوق البنات هو العامل اللفظى واللغوى إذ أنه أصبح من المؤكد اليوم أن البنت بوجه عام تفوق الصبي فى قدرتها على تعلم اللغة واستخدامها .

أما إذا راعى واضع الاختبارات إبعاد العوامل التى تساعد جنس دون الآخر كما هو الحال فى اختبار استنفورد بينيه المعدل سنة ١٩٣٧ فلا يوجد أى فرق يذكر بين الجنسين من حيث الذكاء العام .

هذا ولا يزال مفهوم لفظ الذكاء كما هو مستخدم فى عبارة « اختبارات الذكاء » مفهوماً غامضاً لا يخلو من الالتباس . ولذلك اهتم علماء النفس بقياس القدرات الخاصة التى تشترك فى أداء اختبارات الذكاء اللفظية ومن هذه القدرات نذكر القدرة اللفظية ، أو اللغوية ، التذكر ، القدرة المكانية والميكانيكية ، القدرة العددية ، وأخيراً القدرة الفنية وخاصة القدرة الموسيقية .

وسنعرض الآن لهذه القدرات المختلفة مبتدئين بالقدرة اللفظية أو اللغوية . ففي هذه القدرة يتفوق دائماً البنات على البنين وذلك منذ الطفولة حتى سن البلوغ . وقد وجدت بعض النتائج المعارضة لهذا التقرير غير أن الاختلاف يرجع إما لتدخل عوامل عرضية لم يفطن لها المجرب أو إلى نوع المعلومات الواردة في الاختبار والتي قد تساعد جنساً دون الآخر .وعند ما نتتبع نمو الوظيفة اللغوية لدى الطفل نلاحظ أن البنت تتكلم قبل الصبي وأنها تفوقه في عدد الكلمات التي تستخدمها أو التي تفهمها . ففي سن سنة ونصف تكون النسبة المئوية للكلمات المفهومة لدى البنت ٣٨ ٪ في حين أنها ١٤ ٪ فقط لدى الصبي . وفي سن سنتين ٧٨ ٪ لدى البنت و ٤٩ ٪ لدى الصبي . وكذلك تسبق البنت الصبي في تركيب الجمل وفي تعلم القراءة وفي القدرة على ضبط مخارج الحروف وتوضيح مقاطع الكلام . وبهذه المناسبة يجب أن نذكر أن البنت أقل تعرضاً للتهتهة وعيوب النطق من الصبي . وتحتفظ البنت بتفوقها اللغوى في جميع مراحل الدراسة فهي أسرع في القراءة وفي تمارين تكملة الجمل الناقصة أو القصص الناقصة كما أنها أغزر مادة لفظية في كتابة موضوعات الإنشاء ووجدت مثل هذه النتائج التي تؤيد تفوق البنت في القدرة اللفظية واللغوية في الاختبارات التي أجريت على الزنوج والصينيين واليابانيين وسكان جزيرة هواى .

أما فيما يختص بالقدرة على التذكر فالفرق بين الجنسين ضئيل وإن كان غالباً فى جانب البنت خاصة فى تمارين التذكر المنطقى التى تعتمد على استخدام اللغة وفهمها . ومن المسلم به أيضاً أن المرأة تفوق الرجل فى تصوراتها الذهنية البراقة اللامعة . غير أنه لا يمكن البت فيما إذا كان يرجع هذا الفرق إلى الخصائص الجنسية أم إلى نوع الأعمال التى تقوم بها المرأة .

ننتقل الآن إلى القدرة المكانية والميكانيكية . فإن نتائج الاختبارات تؤيد تفوق البنين على البنات فى هاتين القدرتين . غير أن هذا التفوق لا يظهر إلا ابتداء فى سن الخامسة . ومن الاختبارات التى استخدمت نذكر فهم العلاقات الميكانيكية ، اختبارات المتاهة ، لوحة الأشكال الهندسية ، فتح الصناديق ذات الأقفلة المعقدة . فكل هذه الاختبارات تقتضى من الشخص تصور العلاقات فى المكان فى اتجاهين أو فى الاتجاهات الثلاثة . غير أن البنت تتفوق على الصبى فى الاختبارات الميكانيكية التى تتطلب المهارة والسرعة فى حركات الأصابع أكثر من التصورات المكانية . وقد يُعزى تفوق البنين فى القدرة الميكانيكية إلى نوع الألعاب التى تقدم لهم وهم أطفال غير أنه يمكننا أن نقول إن الفرصة لا يمكن أن تثير الاهتمام وأن تضمن تواصله إلا إذا كان هناك استعداد فطرى وما يقال عن الألعاب الميكانيكية التى تقدم للبنين يقال عن العرايس والألعاب المنزلية

التى تقدم للبنات فهناك دائماً تجاوب بين الفطرة والبيئة مع التسليم بما تمتاز به طبيعة الإنسان من مرونة وقابلية للتعديل .

وكذلك نجد البنين يتفوقون على البنات فى القدرة الحسابية والرياضية بوجه عام ، وخاصة فى حل المسائل الحسابية والهندسية أما فيما يختص بالعمليات الحسابية الأولية من جمع وطرح وضرب وقسمة فالفروق بين الجنسين تكاد تكون معدومة .

وقد أجريت بعض الاختبارات للمقارنة بين الجنسين من حيث القدرات الفنية وخاصة القدرة الموسيقية . فقد وجد أن رسومات البنات تحوى عدداً أكبر من التفاصيل من رسومات البنين ويشاهد هذا الفرق فى الطفولة ، أما مع تقدم السن فإنه يصبح من المتعذر المقارنة بين الجنسين لتدخل عوامل التمرين .

أما فيما يختص بالتذوق الفنى والحكم الفنى فقد وجد أن المرأة تتفوق على الرجل تفوقاً ذات دلالة وإن كان يسيراً ، سواء تناول الحكم الفنى التصوير أو الموسيقى .

أما القدرة الموسيقية أو الاستعداد لتعلم الموسيقى فلا يوجد فرق يذكر بين الجنسين . والأفراد الموهوبون فى مجال الموسيقى لا ترجع موهبتهم إلى التمرين أو إلى الإقامة فى جوّ فنى ، بل إلى العوامل الوراثية .

ونختتم هذا العرض بكلمة موجزة عن التحصيل المدرسى . فمن الثابت تفوّق البنات على البنين فى التحصيل والنجاح فى

الامتحانات ، ومن أسباب هذا التفوق نذكر تفوق البنت فى القدرة اللغوية ، فى جمال خطها ووضوحه وفى بعض السمات الخلقية مثل الطاعة والهدوء والخضوع لنظام المدرسة وتحصينها خارج المدرسة ضد عوامل التشتت وضياع الوقت .

٥ — الميول والاتجاهات

من مظاهر الشخصية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسلوك الانفعالى والاجتماعى الاتجاهات العاطفية نحو الأشياء والأعمال والأشخاص ، أى ما يحب المرء وما يكره ، وما يجذب اهتمامه وعلى العكس مالا يثير الاهتمام بل ما يحدث ابتعاداً ونفوراً . ولا شك فى أن التربية التى يتلقاها الطفل فى مجتمعه الخاص والأمثلة التى تثير ميله إلى التقليد والمحاكاة من أهم العوامل التى تخلق هذه الاتجاهات التى تميز فرداً عن غيره من الأفراد . ومن الواضح أن هناك بعض الاتجاهات التى تميز بين الجنسين ولمعظم هذه الاتجاهات المختلفة أساس فى الفروق الجنسية ، غير أن الأوضاع الاجتماعية والتقاليد والآراء السائدة تعمل على تنمية هذه الاتجاهات وتثبيتها .

ويجب أن نشير فى بدء هذا الحديث إلى أن معظم الدراسات التى تناولت هذا الموضوع أجريت فى الولايات المتحدة وقيمة هذه الدراسات لا تتجاوز البيئة الأمريكية أو الغربية بوجه عام

وقد يجوز تطبيقها فى محيطنا الشرقى بقدر أوجه الشبه القائمة بينه وبين المحيط الغربى وبقدر اشتراك أفراد الجنس البشرى فى طبيعة أصلية واحدة تمتد حدودها إلى العوامل البيولوجية التى تميز بين الذكور والإناث .

تناولت هذه الدراسات ميول الأطفال من الجنسين فى ميادين شتى من النشاط كاللعب والرسم التلقائى واختيار موضوعات الإنشاء والأدب والحديث والهوايات والقراءات وأفلام السينما وبرامج الراديو واختيار المهن والأهداف والمثل العليا . وقد أدت هذه الدراسات إلى إبراز فروق ذات دلالة إحصائية بين الجنسين ، ومما هو جدير بالذكر أن هذه البحوث لم تأت فى الغالب بنتائج جديدة كل الجدة بل أيدت الآراء الشائعة التى تتلخص فيها الخبرة اليومية والمعلومات التى يجنيها الإنسان من ممارسته للحياة .

لنأخذ مثلا الألعاب المفضلة لدى جنس دون الآخر . نجد أن البنين يميلون إلى الألعاب التى تتطلب بذل الجهد والنشاط والتى تقتضى القوة والمهارة العضلية ، خاصة فى الألعاب المنظمة التى تقوم على المنافسة ككرة القدم والملاكمة والمصارعة والألعاب الميكانيكية والصيد والتجديف . أما ألعاب البنات فهى أميل إلى الهدوء وإلى محاكاة الأعمال المنزلية والمدرسية . كما لوحظ فى رياض الأطفال أن البنين يميلون إلى اللعب بمواد

البناء فى حين أن الرسم وصنع التماثيل بالبلاستين من الألعاب المحببة لدى البنات .

وهناك بلا شك طائفة من الألعاب مشتركة بين الجنسين . وقد وجد أن أكبر نسبة للفروق بين الجنسين تقع فى الفترة بين السن الثامنة والحادية عشرة . وبعد هذه السن يأخذ التشابه يزداد مع تقدم السن . غير أنه لوحظ أن ألعاب البنين أكثر تنوعاً من ألعاب البنات .

وقبل الانتهاء من الحديث عن الألعاب نود أن نذكر بعض النتائج الطريفة عن نوع من النشاط يجمع بين اللعب والجد وهو الاهتمام بالمجموعات . فالبنات يملن إلى جمع الصور وقطع الأقمشة أكثر من البنين . أما البنين فيميلون أكثر إلى جمع طوابع البريد وقطع الأحجار والصخور .

والفروق واضحة أيضاً فيما يختص باختيار كتب القراءة . فالكتب التى تستهوى البنين هى التى تصور المغامرات العنيفة والرحلات والاستكشافات والأخبار العلمية وتراجم الأبطال من الرجال . أما البنات فيملن إلى قراءة قصص الحب والغرام والمغامرات اللطيفة التى يكون أبطالها من الأطفال وتراجم المشهورات من النساء وبوجه عام الكتب التى تصف ألوان النشاط النسائى المختلفة .

وهذه الاختلافات فى الميل نحو بعض الموضوعات موجودة

أيضاً فيما يختص بالروايات السينمائية وبرامج الراديو. وكذلك برامج الدراسة . فالبنين أميل إلى دراسة العلوم والرياضيات والتاريخ والبنات إلى دراسة اللغات والمواد التجارية والموضوعات الدينية . غير أن هذا الاختلاف في الميل نحو المواد الدراسية ليس ثابتاً باستمرار فقد يتغير بتأثير شخصية المدرس ومنهجه .

ننتقل الآن إلى اختبار الجنسين في مجال العمل والمهنة . وقد أدت البحوث إلى أن البنين يؤثرون الأعمال التي تقتضي درجة أكبر من المسئولية والتي تتضمن درجة أكبر من المخاطرة والمشقة بشرط أن يعوض ذلك أجر مرتفع كما يؤثرون وضع الخطط بدلا من تنفيذ خطة يضعها الآخرون وأن يكونوا قادة بدلا من أن يكونوا تابعين لغيرهم . والبنات بوجه عام على العكس من البنين وقد لوحظ أن اهتمامهن بالأشخاص أكبر من اهتمامهن بالأشياء ، ولذلك نجد النساء ينجحن أكثر من الرجال في المؤسسات الاجتماعية التي ترعى المرضى والفقراء وتعنى خاصة بحالتهم المعنوية .

ولا يفوتنا أن نذكر البحوث الطريفة التي أجريت للوقوف على الموضوعات التي يتناولها الرجال والنساء في محادثاتهم في الأندية والحفلات والشوارع وغيرها من الأماكن العامة . وكان تسجيل الأحاديث يجري بدون علم المتحدثين . فوجد أن الموضوعات الأكثر تداولا على ألسنة الرجال هي المسائل المالية

والأشغال والأعمال التجارية والألعاب الرياضية فى حين أن النساء يتناولن فى أحاديثهن غيرهن من النساء وبوجه عام الأشخاص دون الأشياء فيما عدا اهتمام المرأة المعروف بكل ما يتصل بالأزياء والملبس .

غير أن هناك عاملا هاماً يقرب بين الجنسين من حيث موضوعات الحديث واختيار موضوعات القراءة فى المجلات والصحف وهو عامل الاشتراك فى مهنة واحدة كالطب أو المحاماة فقد وجد أن الاختلافات بين الجنسين فى هذه الحالة أقل من الاختلافات الموجودة بين أفراد الجنس الواحد مما يشير إلى أثر البيئة والمهنة فى توحيد الاتجاهات بين الجنسين . ويلاحظ فى بعض الاختبارات التى أجريت على البنين والبنات لمعرفة ميولهم المهنية أنهم متأثرون إلى حد كبير بما يعتقده المجتمع ويأخذ به فى تقسيم المهن والأعمال بين الرجال والنساء . غير أن هذا لا ينفى أثر بعض القدرات والميول الفطرية التى توجه جنس فى اتجاه ما بطريقة واضحة . فالمرأة بوجه عام تؤثر الأعمال التى تسمح لها بإبراز قدرتها اللغوية وإرضاء نزعتها الاجتماعية إلى العناية بالأشخاص أكثر من عنايتها بالأشياء .

ونختتم هذه الفقرة بالإشارة إلى موقف كل من الرجل والمرأة من القيم الحضارية الكبرى . وتناول أحد البحوث القيم الست الآتية : القيمة النظرية العلمية — الاقتصادية — الفنية —

الاجتماعية — السياسية والدينية . وأسفرت نتائج هذا البحث على أن المرأة أكثر استجابة من الرجل للقيم الفنية والاجتماعية والدينية فى مقابل القيم النظرية والاقتصادية والسياسية . وهذه النتائج مؤيدة لما سبق أن وضحناه . كما أنه لوحظ أن عامل المهنة مهم جداً فهو كما قلنا من عوامل التقريب بين الجنسين وكثيراً ما يكون أثره أقوى من أثر الفروق الجنسية القائمة على الفطرة والطبيعة . ولكن من حقنا أن نطرح السؤال الآتى : ألا يتم هذا التقارب بين الجنسين بتأثير المهنة الواحدة على حساب سعادة المرأة واتزانها الانفعالى ؟

٦ — التكيف الإجتماعى

لا يختلف الأشخاص بعضهم عن بعض فى القدرات الحسية والحركية والعقلية فحسب بل يختلفون أيضاً فى أخلاقهم واتجاهاتهم الاجتماعية وقدرتهم على المثابرة وضبط النفس .

قد سبق أن أشرنا إلى أن المرأة أكثر استجابة للقيم الفنية والاجتماعية والدينية . وسنذكر الآن نتائج أحد البحوث المشهورة التى أجريت فى مجال السمات الخلقية . وهو البحث الذى تناول عشرة آلاف من الأطفال وكان غرضه المقارنة بين الجنسين فى السمات الخلقية الأربع الآتية : الخداع أو الغش ثم التعاون والإقبال على خدمة الآخرين ، ثم القدرة على الصبر والمثابرة

وأخيراً القدرة على ضبط النفس .

ولضمان صدق النتائج كان الغرض الحقيقى من الاختبار مجهولا من الأشخاص المختبرين وروعى هذا الشرط خاصة فى اختبار الخداع والغش . ومن خصائص هذا الاختبار أن يطلب من التلاميذ تصحيح أعمالهم المدرسية سواء فى الفصل أو فى المنزل ، اتباع بعض التعليمات أو عدم اتباعها كأن يستعين الشخص ببصره مع أن المطلوب عمل التمرين أو القيام ببعض الحركات أثناء اللعب دون الاستعانة بالنظر إلخ . . . . . وكانت نتيجة هذا الاختبار أن نسبة حالات الغش والخداع كانت أكبر لدى البنات فى معظم التمرينات . وقد لا يرجع هذا الاختلاف إلى فساد الخلق بل المرجح أن البنت قد تشعر بضعفها فى مجال التنافس مع الصبى فتلجأ إلى الغش والكذب لتعويض هذا الضعف ولإرضاء نزعتها إلى الظهور والتفوق .

وإذا كانت نتائج هذا الاختبار تميز البنين على البنات فعلى العكس من ذلك نجد البنات يتفوقن على البنين فى السمات الأخرى وهى التعاون والمثابرة وضبط النفس . وكانت أكبر نسبة للاختلافات بين الجنسين فى اختبار ضبط النفس وهذا يفسر لنا نجاح البنت فى تحقيق التكيف المدرسى أكثر من زميلها .

ويمكننا أن نستقى بعض المعلومات عن التكيف الاجتماعى من نسبة عدد الجرائم والمخالفات القانونية لدى الجنسين . فالنتيجة

التى تؤيدها جميع الإحصاءات التى عملت فى هذا الميدان هى أن نسبة الرجال أكبر بكثير من نسبة النساء إلا فى نوع واحد من الجرائم هى الجرائم والمخالفات الجنسية . ولا شك فى أن ظروف الحياة لدى الرجل تعرضه لارتكاب الجرائم والمخالفات أكثر من النساء نظراً لشدة التنافس بينهم . غير أن هناك عاملا آخر يفسر لنا هذا الاختلاف الكبير فى عدد الذين تصدر ضدهم الأحكام القضائية فقد تبين أن القضاة أكثر تسامحاً مع النساء المتهمات منهم مع المتهمين من الرجال .

على كل حال فالواقع أن نسبة الإجرام فى الرجال أكبر وكذلك نسبة البنين من الأطفال المشاكسين المشكلين سواء فى المدرسة أو فى المنزل . ومن التصرفات السيئة التى يرتكبها البنين أكثر من البنات ، نذكر الهروب من المدرسة والتجول فى الشوارع ، الاعتداء على ممتلكات الغير ، السرقة ، تحدى السلطة والانقلاب على النظام ، أعمال القسوة والمشاجرة ، والعدوان العنيف .

وفضلا عن أن هذه الحالات أكبر عدداً فى البنين منها فى البنات فقد لوحظ أن عددها أكبر أيضاً فى كل طفل على حدة من الصبيان وأن معالجة الاعوجاج فى البنت أيسر من معالجته فى الصبى .

ومن بين العوامل التى ترجع إليها زيادة حالات السلوك

المشكل لدى البنين العامل البيولوجي الذى يجعل الصبي أميل إلى الاعتداء أو السيطرة من البنت . ونقصد بالعامل البيولوجي إفرازات الغدد الجنسية لدى الذكر . فقد دلت التجارب التى أجريت على الحيوانات كما دلت دراسة حالات تأخر نضج الغدد الجنسية لدى الذكور أن سلوك العدوان والسيطرة والعنف مرتبط بكمية الإفرازات الداخلية للغدد الجنسية .

وبما أن ميل الصبي إلى العدوان والمشاجرة يظهر منذ الطفولة الأولى وفى رياض الأطفال فلا بدّ أن يكون لتفوق الصبي فى القوة العضلية والنفسية شأن فى إثارة العدوان والسيطرة . غير أن العوامل البيولوجية لا تعمل وحدها بل تجد ما يؤيدها ويثبتها فى الأوضاع الاجتماعية والمعتقدات السائدة عن كل من الجنسين . فالأم تنصح ابنتها بألا تتشاجر مع الصبيان وفى الوقت نفسه تبدى إعجابها بابنها الصغير لأنه جرىء يدفع عنه عدوان الآخرين بقوة وشجاعة . فما هو مشهور عن الصبي أو عن البنت فى بيئة ما يشكل الى حدّ كبير سلوك الأطفال لكى يحققوا فى أنفسهم الصورة التى يتصورها المجتمع عنهم . فهذا الإيحاء الجمعي شديد الأثر فى الأطفال ، خاصة أنه يعمل عمله بطريقة خفية متواصلة .

ومن اختبارات الشخصية التى طبقت على البالغين من الرجال والنساء اختبار برنرويتر Bernreuter الذى يقيس

السمات الآتية : الحالات العصبية ـ الاكتفاء الذاتى ـ الانطواء ـ السيطرة ـ الثقة بالنفس ـ الصفة الاجتماعية .

وقد وجد أن النساء أكثر عرضة للمخاوف والحالات العصبية ، أكثر انطواء وخضوعاً وأخيراً أكثر ميلا للتجمع والتعاون الاجتماعى فى حين أن الرجال أكثر اكتفاء وثقة بأنفسهم وأكثر ميلا إلى السيطرة .

ونجد فى بحث آخر مقارنة تفصيلية بين البنين والبنات من حيث الحالات العصبية . فالحالات الآتية نسبتها أكبر لدى البنات : مص الأصابع ، قضم الأظفار ، نوبات الغضب ، اضطرابات النوم وأخيراً المخاوف على اختلاف أنواعها وخاصة الخوف من الحشرات والحيوانات والظلام والأمكنه العالية . أما فى البنين فالنسبة أكبر فى الحالتين الآتيتين : بل الفراش ليلا واضطرابات الكلام والنطق .

إن كل هذه النتائج تؤيد بطريقة تجريبية ما هو شائع فى الآراء العامة عن طباع كل من الرجل والمرأة . والاتفاق هنا بين النتائج التجريبية والآراء الشائعة أكبر من الاتفاق فى مجال القدرات العقلية . فقد سبق أن ذكرنا أن لا فرق بين الجنسين فى الذكاء وأن الفروق التى تشاهد من حيث الإنتاج الفكرى يرجع إلى حد كبير إلى عدم تكافؤ الفرص فى المجتمع .

أما سبب الاتفاق بين العلم والرأى العام فيما يختص بالسمات

الخلقية فهو أن هذه السمات الخلقية تتأثر أكثر فى الصفات العقلية بتأثير البيئة والتربية . فقد دلت بعض الدراسات التى تناولت القبائل البدائية على أن النظام الاجتماعى ونظام توزيع العمل بين الجنسين قد يخفف إلى حدّ كبير من نزعة الرجل إلى الاعتداد والسيطرة فى حين يزيد المرأة عدواناً وسيطرة . ولكن على الرغم من تأثير البيئة والتربية فهناك بعض الخصائص الطبيعية التى تميز بين الرجل والمرأة من الوجهات البيولوجية والنفسية والاجتماعية وأن هذه الخصائص الطبيعية تحدّ من تأثير البيئة . فالتربية المثالية هى التى تعتمد على التربة الأصلية محاولة تنمية الاستعدادات الفطرية وتهذيبها وإعلائها بحيث تتفق مع القيم السامية التى تكافح الإنسانية فى سبيلها ، قيم العدالة والمحبة .

الفصل الثانى

سيكولوجية المرأة

١ — تطلع المرأة إلى الكمال

ليس من اليسير أن يقف الباحث موقفاً موضوعياً بحتاً فى دراسته لسيكولوجية المرأة أو الرجل كما لو كان يقوم بدراسة فى علم الكيمياء أو الطبيعة . فبوصفه إنساناً يصدر حكماً على بنى جنسه فإنه يميل من حيث لا يشعر إلى شىء من التحيز . فالباحث سواء تكلم عن جنسه أو الجنس الآخر متأثر بتجاربه السابقة وبالصورة التى قد يكون قد اكتسبها منذ طفولته عن أبيه وأمه وبالنموذج الذى تبلورت ملامحه وسماته خلال الخبرات التى عاناها فى سن المراهقة عند ما كان يتلمس فى الجنس الآخر ما يرضى نهمه العاطفى . ويشبع حاجته إلى العطف والحب الناشىء .

الواقع أن هناك سوء تفاهم مزمن بين الجنسين يرجع عهده إلى فجر التاريخ . ومما دعم سوء التفاهم هذا أن المفكرين والمشرعين وخاصة المؤرخين كانوا من الرجال ، وعند ما تحدثوا عن المرأة كثيراً ما وصفوها بالضعف والمكر والاحتيال وغيرهما

من الصفات التي يتخذها الضعيف للتغلب على القوى .

وحتى فى الحياة اليومية نرى أن بعض الأساليب التى يستخدمها الآباء فى تربية أطفالهم تخلق فى نفوس الناشئين سوء التفاهم بين الجنسين وتجعل كل جنس يقف من الآخر موقف الاحتقار والازدراء أو موقف التحفظ والحذر .

ومن واجبنا جميعاً أن نزيل سوء التفاهم هذا أو على الأقل أن نحاول مخلصين التخفيف من حدته . وأول خطوة يجب أن نخطوها هي البحث عن منشأ هذا الخلاف فى الرأى بين الجنسين عند ما يحكم كل منهما على الآخر . ويبدو لى أن السبب الرئيسى يرجع إلى محاولة كل منهما المفاضلة بينهما : أيهما أفضل وأرقى وأكمل من الآخر ، الرجل أم المرأة ؟ أيهما هو المثل الأعلى أو النموذج الذى يجب على الجنس الآخر أن يحاكيه أو أن يحققه فى نفسه . إن هذه الأسئلة لا معنى لها مطلقاً وإن دلت على شيء فإنها تدل على سذاجة فى التفكير ولا يمكن أن تصدر إلا عن شخص يقف موقف الأطفال الذين لم يتم بعد نضجهم الانفعالى . إذ أن المفاضلة أو المقارنة لا يمكن أن تقوم إلا بين شيئين أو أمرين خاضعين لنوع واحد من القياس . وهل ينطبق ذلك على الرجل والمرأة ؟ هل الاختلاف فى الجنس اختلاف عرضى كمى يعبّر عنه بالزيادة أو بالنقصان ، أم هو اختلاف جوهرى كالاختلاف الموجود بين نوع ونوع آخر .

يوجد فريق يذهب إلى أن الفرق بين الجنسين فرق جوهرى فطرى يرجع إلى اختلاف أساسى فى بناء الجرثومة التى ستكون إما ذكراً أو أنثى . فى حين أن فريقاً آخر يؤكد أن الفرق بين الذكر والأنثى هو فرق فى الدرجة وأن هناك سلسلة من الدرجات المتوسطة تصل بين الأنوثة والرجولة وأن التطور يبدأ من صورة الأنثى ويتجه نحو شكل أرقى هو كمال الرجولة ، فإن المرأة فى نظر أولئك القوم ليست إلا رجلا ناقصاً لم يكتمل نموه .

وقد يرد بعضهم على هذا الرأى بأن الذكر فى بعض الأنواع الحيوانية الدنيا يمكن الاستغناء عنه بالتخصيب الآلى : غير أن هذا النوع من الجدل هو ضرب من العبث عند ما ننظر إلى طبيعة الإنسان المتكاملة[1] . كل ما ينبغى أن نستوحيه من الدراسات البيولوجية هو أن الجنين فى الإنسان عند ما يكون فى طور تكوينه الأول يحمل المعالم الأولى للجهازين التناسليين للجنسين ثم ينمو أحدهما ويضمر الآخر فيتجه الجنين فى نموه نحو صورة الذكر أو صورة الأنثى . على ذلك يمكن القول بأن أصل الرجل وأصل المرأة واحد غير أن جسم كل منهما يسلك فى نموه منذ مرحلة جنينية مبكرة إما طريق الذكورة أو طريق الأنوثة . وذلك استعداداً للقيام بوظائف مختلفة. وإن

(١) راجع مقال المؤلف : « الجنسية من الوجهة البيولوجية فى ضوء المنهج التكاملى » فى « الكتاب السنوى فى علم النفس » لعام ١٩٥٤ .

كانت فى النهاية متممة بعضها بعضاً . وعلى ذلك الفرق فى التكوين التشريحى وما يستتبعه من تخصص فى الوظائف الفسيولوجية تتوقف الفروق السيكولوجية الموجودة بين الجنسين ، سواء فيما يختص بالدوافع والعواطف والصفات الخلقية أو بنوع الذكاء وطريقة التفكير ومدى تأثره بالعوامل الانفعالية .

فالنمو الأمثل الذى يجب أن تحققه المرأة هو اكتمال أنوثتها ، وذلك باستخدام الوسائل الملائمة لطبيعتها كمرأة . وكذلك فيما يختص بالرجل .

ومما هو جدير بالذكر ، بصدد سعى كل من الجنسين لتحقيق هدفه أن المرأة تستهدف مثلا أعلى يفوق فى صرامة مطالبه وفى سموه المطلق المثل الأعلى الذى يستهدفه الرجل . فإن المرأة تتطلع أكثر من رفيقها إلى المطلق وإلى استكمال النقص . ولهذا السبب كان طريق الأنوثة أشد وعورة من طريق الرجولة . وإزاء هذه الصعوبات التى تعترض تحقيق رسالتها كاملة كثيراً ما تلجأ المرأة إلى التضحيات الضخام وإلى إنكار ذاتها إلى حد البطولة الصامتة المستترة وراء قناع من الرضا المصطنع .

إن هذا الجانب الهام بل الجوهرى فى نفسية المرأة ليس من نسج الخيال أو من وحى الشعر بل هو حقيقة واقعية أسفرت عنها الدراسات التحليلية منذ نصف قرن فجاءت مؤيدة لشهادة التاريخ ولوحى الشعراء .

يقول فرويد منشىء التحليل النفسى فى بحث نشره عام ١٩٣١ عن الوظيفة الجنسية عند المرأة إن تحقيق التوازن لدى المرأة أشق بكثير من تحقيقه لدى الرجل ، وإن أمامها ثلاثة طرق أحدها هو الطريق السوى المؤدى إلى الأنوثة الواضحة المستقرة غير أنه أشق الطرق مسلكاً ، وأما الطريقان الثانى والثالث ففيهما شذوذ واعوجاج : فإما تشوية الخلق بتغلب عناصر الرجولة على الأنوثة أو كف النشاط الجنسى وكبته وفصله عن الوظيفة التناسلية .

ولنتساءل الآن عن منشأ هذا التطلع الفائق إلى الكمال المطلق الذى يطبع المرأة بطابعه الخاص ، قد يقول بعضهم إن المرأة لم تقف هذا الموقف إلا كرد فعل للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى فرضها عليها الرجل صاحب السلطة التشريعية وغيرها من السلطات ، والتى جعلتها تعتقد وتشعر أنها كائن ضعيف ناقص محكوم عليه أن يظل على الدوام قاصراً . والآن وقد نهضت المرأة من سباتها وأخذت تطالب بحقوقها المهضومة وبالمساواة التامة بينها وبين الرجل نجدها راضية بأن تخفف من وطأة هذا المثل الأعلى مشيرة إلى أن تسلك طريقاً أقل وعورة من الطريق الذى رسمه لها الرجل .

إن هذا الدفاع لا يصيب لب المشكلة فهو ضرب من التفكير الجدلى السطحى الذى قد يستخدم بنجاح فى الدعاية

السياسية الرخيصة ولكنه عديم القيمة من الوجهة العلمية . فإن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تعيش فيها المرأة ليست هي العلة لشعور المرأة بالنقص، بل هي معلولة لعلة أصلية يجب البحث عنها في طبيعة المرأة نفسها وفي تركيبها الجسمي وفي وظائفها البيولوجية وفي رسالتها من حيث هي متجهة لنظام طبيعي يشملها ويفوقها ومن حيث هي مساهمة في النظام الاجتماعي الذي تعيش فيه .

فإذا أردنا أن نفهم تطلع المرأة إلى المطلق والكمال على حقيقته يجب علينا أن نفهم طبيعتها الجسمية وأن ندرس العوامل التي تعين نموها من الوجهة التشريحية والفسيولوجية والبيولوجية . ثم بعد ذلك وفي ضوء الحقائق التي تقدمها لنا هذه الدراسة ننتقل إلى دراسة العوامل التي تعين نموها النفسي والاجتماعي . فلا يوجد أحد اليوم يستطيع أن ينكر الصلة الوثيقة التي تربط شروط النمو النفسي بشروط النمو الجسمي . ويتوقف استقرار النمو النفسي وثباته على مدى استقرار الوظائف الفسيولوجية وثباتها . ومن الحقائق التي لا تخفى على أحد أن التوازن الفسيولوجي في المرأة أشد تعقداً وأدق تركيباً وأكثر تعرضاً للتغير والاختلال من التوازن الفسيولوجي في الرجل . فلا غرابة إذن في أن يكون التوازن السيكولوجي لدى المرأة أعسر تحقيقاً من التوازن السيكولوجي لدى الرجل ما دمنا نسلم بالارتباط الوثيق بين النفسي والجسمي وتبادل الأثر بينهما .

٢ — طبيعة المرأة من الوجهة التشريحية :

ستقسم حديثنا عن طبيعة المرأة من الوجهة الجسمية ، فى مقابل طبيعة الرجل ، إلى ثلاث نواح : أولا الناحية التشريحية أى شكل الجسم من الخارج ثم تركيب الأعضاء والأجهزة . ثانياً الناحية الفسيولوجية أى دراسة الوظائف العضوية الخاصة بالمرأة . ثالثاً الناحية البيولوجية أى وظيفة المرأة بصدد الحياة أى وظيفتها كأم . وسنشير فى أثناء معالجة كل ناحية من هذه النواحى الثلاث إلى أثر كل من العوامل التشريحية والفسيولوجية فى نفسية المرأة وسلوكها .

نتناول أولا الناحية التشريحية السطحية الخاصة بشكل الجسم كما يبدو فى نظر الأطفال . فمن المعلوم أن الأطفال يقومون بمقارنة بعضهم ببعض ومما يلفت نظرهم الاختلاف الموجود بين تركيب جسم الصبى الصغير وجسم البنت الصغيرة وقد لاحظ علماء النفس أن البنت الصغيرة تبدى اهتماماً أكبر من الصبى فى ملاحظة هذا الفرق . ويبدو هذا الفرق فى نظر البنت على أنه نقص وهى تدرك هذا الفرق بأنه نقص نظراً لصغر سنها وعدم اكتمال قواها العقلية وعجزها عن أن تفهم حكمة هذا الاختلاف فى التركيب الجسمى . ومما يضاعف أثر الشعور بالنقص لدى البنت الصغيرة موقف الكبار الذين

يقللون من شأن البنت ويرفعون من شأن الصبي . مثل هذا الموقف يشجع الصبيان المشاكسين على التفاخر بما حبتهم به الطبيعة من دلائل الذكورة والقوة . وحول هذا الشعور بالنقص الذى تعانيه البنت الصغيرة تثار عواطف أخرى من حسد وعداوة وحقد نحو الجنس الآخر الذى يبدو فى نظر البنت أسعد حظاً منها .

أعترف أنه ليس من السهل قبول مثل هذه الحقائق والتسليم بوقوعها ، بل سيصل البعض إلى وصف هذا الكلام بأنه مجرد أوهام صادرة عن مخيلة مريضة منحرفة . وإذا سلم جمهور المعترضين والمعترضات بأن الطفل حقاً يدرك أوجه الاختلاف أكثر من إدراكه أوجه التشابه وبأن البيئة فعلا — وخاصة فى شرقنا العربى — ترفع من قيمة الصبى وتحط من قيمة البنت ، فإنهم مع ذلك يرفضون التسليم ببقاء هذه الانطباعات الأولية فى نفس المرأة . الواقع أننا نسلم أيضاً بزوال هذه الانطباعات والتأثيرات من شعور المرأة ، غير أن الملاحظة الدقيقة لبعض ضروب السلوك لدى المراهقة والمرأة البالغة وكذلك المشاهدات الإكلينيكية تدل بصفة قاطعة على بقاء هذه الانطباعات المؤلمة فى اللاشعور وعودتها من جديد أثناء الحياة الزوجية .

والآن بعد هذه النظرة إلى الشكل الخارجى ننتقل إلى التركيب التشريحى الداخلى . فأول ما نلاحظه هو أن الجهاز التناسلى لدى المرأة أكثر تعقداً وأدق تركيباً وأشمل أثراً من الجهاز التناسلى لدى الرجل .

فالمرأة بحكم تركيبها التشريحي وبحكم وظيفة الحمل مركزة ، أكثر من الرجل ، حول نفسها ، وحياتها الجنسية مرتبطة بعدد أكبر من الوظائف أهمها وظيفة تكوين الجنين ووظيفة الرضاعة ، ويترتب على ذلك بعض الآثار النفسية الهامة . فقد تتنازعها أحياناً قوتان متضادتان : الاندفاع الجنسي من جهة والخوف من الحمل من جهة أخرى وقد تتغلب القوة الثانية على الأولى مما يؤدى إلى بعض المتاعب النفسية وإلى ألوان من القلق والانحراف .

ويؤدى تركيز المرأة حول نفسها إلى نوع من حب الذات أطلق عليه علماء النفس لفظ النرجسية . وهذا المعنى مستمد من أسطورة يونانية قديمة ، أسطورة الشاب الجميل نرجس الذى كان يقضى الساعات الطوال فى تأمل وجهه فى الماء والاستمتاع بجماله . فغضب الآلهة عليه وحولوه إلى الزهرة المعروفة الآن باسمه .

فلا شك فى أن المرأة أميل من الرجل إلى تأمل نفسها فى المرآة وتجميل وجهها ، بل هى تبدى اهتمامها ببنات جنسها وبأزيائهن وملابسهن ومختلف وسائل التجميل . وينتج من اهتمام المرأة الزائد بشكلها وجمالها ودرجة جاذبيتها شعورها الحاد الواضح بنقائصها الجسمية وبالتالى الصعوبة التى تعانيها فى إرضاء نفسها وتحقيق مثلها الأعلى فى الجمال والكمال .

وأخيراً نلاحظ فى تركيب جسم المرأة إذا نظرنا إليه فى

شكله العام أنه يمتاز بوحدة البناء وبقوة الترابط بين أجزائه وبدرجة عالية فى الانسجام والرشاقة حتى إن صورة الشكل الكلى تخفى الأجزاء التى تكوّن هذا الشكل، أو بعبارة أخرى يمتاز جسم المرأة باندماج الأجزاء بعضها ببعض كأنه أقرب إلى اللحن الموسيقى منه إلى الشكل الجامد المجسم .

ومما هو جدير بالذكر أن لهذه الصفات التى نلاحظها فى المجال الجسمى ما يناظرها فى المجال النفسى . فكما أن أجزاء جسمها تنساب بعضها على بعض كذلك نجد أنه من حيث التركيب العقلى لا توجد فواصل قاطعة بين عالم الفكر وعالم الحس وعالم العاطفة وعالم الحكم الأخلاقى والاجتماعى . فكل هذه النواحى مندمجة بعضها ببعض ومصبوغة كلها بصبغة عاطفية . وإذا كان منطق الرجل يتميز بنزعته العقلية الاستدلالية فإن منطق المرأة هو فى صميمه منطق العاطفة . وإذا كان ذكاء الرجل ذكاء تحليلياً فإن ذكاء المرأة أميل إلى التأليف والشمول ، فهو قائم على نوع من الحدس والإلهام ، هو ضرب من الفراسة السريعة ومن البصيرة التى تستشف بواطن الأمور دون أن تدرك تماماً كيفية هذا الاستبصار والاستشفاف . وعند ما تبدى المرأة حكمها على الأشخاص فكثيراً ما يعتمد رأيها على ضرب من المشاركة الوجدانية والتعاطف ، أى أنها تحكم حسب ما تشعر به من جاذبية نحو موضوع الحكم أو من نفور منه . وإذا

فقدت هذه القدرة على التجاوب العاطفى فإنها تفقد فى الآن نفسه قدرتها على فهم المواقف الإنسانية وتقديرها . ولا يعود إليها حسها السيكولوجى الدقيق إلا إذا نبضت فيها من جديد حياتها العاطفية .

وفى ختام هذا الحديث يجب التنبيه إلى أن هذه السمات المختلفة لا تظهر واضحة نقية إلا فى حالة الأنوثة المثالية الكاملة . وبما أن هذا المثل الأعلى للأنوثة من العسير أن يتحقق كاملا وأن النساء يشتركن فى هذا المثال الأعلى بدرجات متفاوتة فإنه يترتب على ذلك اشتراكهن أيضاً بدرجات متفاوتة فى هذه السمات السيكولوجية التى ذكرنا .

ومهما يكن من أمر هذا التفاوت فإن الوصف الذى قدمناه لطبيعة المرأة من الوجهة التشريحية وما يترتب عليها من سمات نفسية يظل صحيحاً فى مجمله . ولذلك ينبغى على الوالدين وعلى كل من تدعوه وظيفته فى المجتمع إلى العناية بتربية البنت أن يراعوا هذه الحقائق الأساسية وأن يعملوا على أن تسير البنت فى نشأتها طبقاً لطبيعة الأنوثة وأن يحولوا دون تنمية النزعات الرجولية التى قد تستسلم لها .

٣ — طبيعة المرأة من الوجهة الفسيولوجية والبيولوجية

ذهبنا فى الفقرة السابقة إلى أن السمات السيكولوجية

والاتجاهات العقلية مرتبطة إلى حدّ كبير بالشروط والعوامل التشريحية من شكل وبناء وتركيب وقد حصرنا هذه السمات والاتجاهات فى النقط الآتية :

أولا : إحساسها بالنقص العضوى وما يسببه هذا الإحساس من قلق وغيرة وحسد وعداوة .

ثانياً : تركيز المرأة حول نفسها ونزعتها إلى النرجسية وما يترتب على ذلك من اهتمام بجمال جسمها وجاذبية وبالتالى اهتمامها بأساليب الدلال ووسائل الإغراء .

ثالثاً : الدور الهام الذى تلعبه العاطفة فى توحيد نشاطها العقلى واتجاهاتها النفسية وما يمتاز به ذكاؤها من صفة الشمول والتأليف واعتماد حكمها العقلى على الفراسة والحدس .

كما لاحظنا أن طبيعة المرأة من الوجهة التشريحية تمتاز بالترابط الوثيق وبوحدة البناء . أما من وجهة الشروط الفسيولوجية ، فإن الأمر الذى يسترعى انتباهنا هو ضعف استقرار هذه الشروط وتعرضها للتغير السريع أثناء المراحل التى تجتازها المرأه : مرحلة الصبا ثم مرحلة البلوغ واكتمال النمو ثم مرحلة الأمومة . وهذه المراحل مختلفة بعضها عن بعض اختلاف المراحل التى تجتازها الفراشة فى نموها منذ أن كانت دودة ثم يرقة .

والوظيفة الهامة التى تخضع لتغيرات دورية كل شهر

هي وظيفة تكوين البويضة، ولا يقتصر أثر تكوين البويضة وما يتبعه من عمليات فسيولوجية على إحداث الشعور بالتعب ؛ بل هناك آثار أعمق ترجع إلى إفراز الهرمونات الخاصة بالأنثى دون الذكر . وقبل أن نبين أثر هذه الهرمونات في كيان المرأة من الوجهة الفسيولوجية والوجهة النفسية ، يجدر بنا أن نتحدث قليلا عن طبيعة هذه الهرمونات وعن الغدد التي تفرزها .

وإذا نظرنا إلى مجموع الوظائف التي تقوم بها أجهزة الجسم المختلفة نلاحظ أنها تمتاز بالتكامل ، أي بالتعاون الوثيق بينها وبانسجام عملها وتآزر آثارها . ويشتمل الجسم على أجهزة خاصة لتحقيق هذا التكامل ، الجهاز العصبي من جهة وجهاز الدورة الدموية من جهة أخرى . فالجهاز العصبي ينظم التنبيهات الحسية والحركية محققاً التآزر بين العضلات والتكيف مع البيئة الخارجية . أما جهاز الدورة الدموية فوظيفته الأساسية تغذية جميع خلايا الجسم وإبقائها مُعدة للقيام بعملها بدرجة متزنة من النشاط . ويقوم التكامل الذي يحققه جهاز الدورة الدموية على أسس كيميائية ، هذا فضلا عن الارتباط الوثيق بين الجهاز العصبي والجهاز الدوري .

وقد اكتشف العلماء منذ نصف قرن تقريباً عاملا هاماً من عوامل التكامل الكيميائي ، هو مادة كيميائية عضوية سميت بالهرمون تفرزها غدد معينة ، صغيرة الحجم ، تختلف

فى تركيبها عن الغدد الأخرى التى كانت معروفة من قبل مثل الغدد اللعابية والغدد الدمعية والغدد العرقية . وقد سميت الغدة المفرزة للهرمون بالغدة الصماء ، أى المغلقة على نفسها دون أن تكون لها قنوات خارجية لتوصيل الإفرازات ، بل هى تفرز مادتها مباشرة فى الدم بفضل العدد الكبير من الأوعية الدموية الدقيقة التى تتخللها . وأهم هذه الغدد الصماء هى الغدة النخامية فى الدماغ والغدة الدرقية فى الرقبة والغدة الأدرينالينية الموجودة فوق الكلية والغدد الموجودة فى البنكرياس والتى تفرز هرمون الأنسولين ، وأخيراً الغدد التناسلية التى تفرز إفرازاً داخلياً فوق إفرازها الخارجى .

وهذه المواد الكيميائية العضوية التى تفرزها الغدد الصماء تؤدى دوراً هاماً فى تنظيم النمو الجسمى والعقلى كما أن لها أثراً كبيراً فى الحالة المزاجية والوجدانية عامةوالانفعالية بوجه خاص .

وسنتحدث بشىء من الإسهاب عن الغدة التناسلية نظراً للدور الهام الذى تؤديه فى حياة المرأة من الوجهتين الجسمية والنفسية . فالمبيض كما هو معلوم هو العضو الذى يطلق كل شهر البويضة بعد أن تكون قد نضجت وأصبحت صالحة للتخصيب . ولكن المبيض يفرز أيضاً نوعين من الهرمون ، الواحد بعد الآخر فى فترات معينة ، يسمى الهرمون الأول الفليكولين والثانى لوتيين . ولكل منهما أثر خاص يتجاوز حدود

العمليات الجسمية إلى الحالة النفسية والمزاجية ، حتى أن بعضهم سمى الهرمون الأول بهرمون الحب والثانى بهرمون الأمومة ، كأن المرأة فى مدى كل شهر تمر بمرحلتين نفسيتين مختلفتين : مرحلة الزوجية ثم مرحلة الأمومة . وهذا يفسر لنا بعض ما يصيب المرأة من تقلب فى المزاج ، من الانتقال من حالة الفرح والاطمئنان والهدوء المتزن إلى حالة الكآبة والقلق والتوتر . فهى كالآلة الموسيقية المهددة ببعض الخلل والتى تتطلب باستمرار تنسيق أوتارها برفق ولين . ويقع عبء هذا التنسيق على كاهل الزوج الذى قد تصدمه أحياناً هذه التقلبات الفجائية فى مزاج زوجته . غير أنه إذا فهم تماماً هذه الشروط الفسيولوجية العميقة التى تخضع لها المرأة يصبح من السهل عليه أن يساعد زوجته على أن تجتاز بسلام هذه الأزمات الدورية .

وهذا يجعلنا ننتقل إلى التحدث عن طبيعة المرأة من الوجهة البيولوجية ، أى من وجهة وظيفتها بصدد الحياة وبقاء الجنس أى وظيفة الأمومة .

وحالة المرأة بصدد وظيفة التناسل وبقاء الجنس أكثر تعقداً من حالة الرجل . فالمرأة كما قلنا تقع تحت تأثير هرمونين مختلفين ، هرمون الحب وهرمون الأمومة ، وقد يكونا فى حالة تضافر وتعاون أحياناً وفى حالة تنافر وتضاد أحياناً أخرى ، كأن المرأة تتذبذب بين قطبين ، بين الحب من جهة وبين

الأمومة من جهة أخرى . ووظيفتها فى كلا الجهتين متعددة النواحى والأدوار وقد تكون هذه الأدوار أيضاً أحياناً متضافرة متعاونة وأحياناً أخرى متنافرة متضادة ، فهى تقوم بدور الزوجة نحو زوجها وبدور الأم نحو أبنائها ، وسوف نشير إلى أنواع الصراعات التى تنشأ من ازدواج دور المرأة وكيف قد يكون أحياناً من العسير التوفيق بينهما وتحقيق التوازن والعدالة بين مطالب كل من الزوج ومن الابن .

ثم إن هناك ازدواجاً فى موقف المرأة من حيث هى زوجة تنشد الحب ، فعليها فى بادىء الأمر أن تلعب دوراً إيجابياً فعالا ، وميلها الطبيعى إلى التجميل واستخدام أساليب الإغراء والجذب يساعدها على القيام بهذا الدور . ثم عليها فى نهاية الأمر أن تستسلم وأن تقبل طيعة راضية ما يبدو فى الظاهر أنه هزيمة ، فى حين أنه فى واقع الأمر تلبية المرأة لنداء الحياة الجاهدة فى البقاء .

وهذه النقطة الأخيرة جديرة بأن تستوقفنا قليلا ، لأنها تكشف عن أعمق سر من أسرار طبيعة المرأة : فهى ترغب وتخشى فى آن واحد كأن هناك غريزة مضادة لغريزة الجنس ولا يتم تغلب غريزة الجنس إلا إذا ضحت المرأة بأنانيتها وحبها لذاتها . وهذه التضحية أشق على المرأة المتمدنة منها على المرأة التى تعيش عيشة ساذجة طبيعية . غير أن سعادتها الحقيقية

تتوقف فى نهاية الأمر على مدى إخلاصها وعمق تضحيتها .

ومن الواضح جداً أن هذا الميل إلى البذل والتضحية يظهر ويقوى عند ما تصبح الفتاة قادرة على تأدية وظيفتها البيولوجية . نعم إن البنت الصغيرة تميل فى لعبها إلى محاكاة دور الأم فهى تفرح عند ما يهدى لها عروسة صغيرة تعنى بها وتعاملها كأنها طفلة فتحيك لها الملابس وتهيئ لها فراشها وتراقب نومها مخاطبة إياها أحياناً بلطف وتدليل وأحياناً أخرى بعنف وصرامة وغير ذلك من أساليب اللعب المستحبة لدى البنت ، غير أنها لا تشعر فى الواقع بما يناسب هذه المواقف من عواطف وانفعالات . فالطفلة حتى السنوات الأولى من مرحلة المراهقة تكون من الوجهة العاطفية مركزة حول نفسها كأنها فى حاجة إلى كل طاقتها النفسية لتدعيم شخصيتها الناشئة وإثبات ذاتها ولا ينمو فيها الميل إلى البذل والتضحية إلا عندما تنضج وتصبح صالحة للقيام بوظيفة الأمومة .

غير أننا نعود فنقرر أن رسالة المرأة ليست مقصورة على ما تبذله من تضحيات فى سبيل وظيفتها البيولوجية من حمل ورضاعة ورعاية أطفالها . فقبل كل ذلك إن من حقها أن تحظى بحياة زوجية سعيدة وبأن تجد فى حب زوجها لها وفى حبها لزوجها ما يرضى حاجاتها الوجدانية من لذة وسرور ورغباتها العاطفية من حب واطمئنان وتقدير . وسوف نرى عند

حديثنا عن الحب والأمومة أنه من المحال الفصل بينهما وأن حق المرأة فى الحب لا يقل عن حقها فى الأمومة وأن فقدان أحدهما لا يمكن أن يعوضه الآخر إلا إلى حدّ ما وعلى حساب سعادتها الحقة وتوازنها النفسى .

٤ ــ سيكولوجية المرأة من الوجهة العاطفية

أشرنا فيما سبق إلى العلاقة الوثيقة الموجودة بين التركيب الجسمى والوظائف الفسيولوجية الجنسية وبين بعض السمات النفسية التى تكون أكثر وضوحاً فى المرأة منها فى الرجل . ولم نغفل أثر البيئة والتربية فى نمو هذه السمات أو تعطيلها أو تشويهها . ويظهر أثر البيئة واضحاً عندما نتأمل تطور المرأة من الوجهة العاطفية . فالعواطف من أهم دوافع السلوك ومن العوامل الفعالة التى تعين نوع العلاقة بين الأفراد وشدة هذه العلاقة . ويجب أن نذكر أن تكوين العواطف لايرجع إلى أثر البيئة فحسب بل هى تقوم أولا على ما زود به الإنسان من ميول فطرية تمتزج جذورها النفسية بالجذور الفسيولوجية من إحساسات متنوعة ومن ضروب الاستجابات التى تؤديها العضلات والغدد .

ومن أهم هذه الإحساسات الفطرية التى ستدخل فى تركيب العواطف الإحساس باللذة والإحساس بالألم . أما الاستجابات العضلية فتكون إما بالبسط أو بالقبض ، بالإقدام أو بالإحجام.

ومن هذه المواد الأولية من إحساسات واستجابات وما وراءها من ميول ودوافع فطرية ستتكون العواطف متخذة أحياناً صورة الانفعال أو أحياناً أخرى صورة الاتجاه الوجدانى المستقر إلى حدّ ما . ومما يساهم فى تعقيد الانفعالات ونمو العواطف وتطورها العوامل العقلية من إدراك وفهم وتذكر وتخيل وتفكير والتى تنشط بتأثير المواقف الاجتماعية المختلفة التى تحيط بالمرء منذ طفولته الأولى .

هذه المقدمة تمهد لنا السبيل إلى فهم تطور الحياة العاطفية[1] وتنمو هذه الحياة فى صورة واحدة عند الصبى وعند البنت فى السنوات الثلاث الأولى ثم تظهر بينهما بعض الاختلافات الهامة سنتحدث عنها بعد الكلام عن المرحلة الأولى المشتركة التى تنتهى فى أواخر السنة الثالثة من عمر الطفل .

يسير التطور الوجدانى فى مجالين متميزين أحدهما عن الآخر فى بادىء الأمر ثم يتم المزج والتكامل بينهما كلما تقدم المرء نحو النضج العاطفى وهذان المجالان هما حسب تاريخ تنشيطهما المجال الحسى أولا ثم المجال العاطفى الذى يقوم فى بعض أسسه على المجال الأول .

---

(١) انظر : « مراحل النضج العاطفى والاجتماعى » فى كتاب « مبادىء علم النفس العام » للمؤلف . ص ٣٥٠ – ٣٥٤ الطبعة الثانية ١٩٥٤ – دار المعارف بمصر .

نلاحظ فى المولود الحديث أن معظم نشاطه يدور حول وظيفة التغذية فهو بمثابة جهاز هضمى فحسب ، وسائر الوظائف الأخرى من حسية وحركية ليست إلا خدمة لهذا الجهاز . والحواس التى تكون أكثر نشاطاً من غيرها هى الذوق والشم واللمس . ويكون نشاط هذه الحواس وما يصاحب تنبيهها من حركات مركزاً فى بادىء الأمر فى الفم وهو مدخل الجهاز الهضمى . ففى أثناء الرضاعة يقوم الرضيع بحركات الامتصاص التى تسبب له لذة معينة وهو فى الوقت نفسه يستمتع بما يحسه من دفء عند ما تضمه أمه إلى صدرها . وعلى ذلك تكون منطقة الفم المركز الأول للإحساس باللذة كما قد تكون أحد مراكز الإحساس بالألم والتقزز عند ما توضع فى فمه مادة مرة مثلا .

ثم خلال النصف الثانى من السنة الأولى تصبح منطقة أخرى مركزاً جديداً لهذه الإحساسات من لذة وألم وهذه المنطقة الجديدة هى الطرف الآخر من القناة الهضمية . وفى أثناء تدريب الطفل على النظافة فإنه يختبر ألواناً جديدة من اللذة والألم ويبدأ يفهم دلائل الرضى أو السخط الصادرة من أمه . وأخيراً فى أواخر السنة الثالثة يكتشف الطفل منطقة ثالثة يتركز فيها الإحساس باللذة هى المنطقة التناسلية [1]

---

(١) راجع بهذا الصدد مقال المؤلف : « نمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته » فى « مجلة علم النفس » المجلد الثانى ، يونيو ١٩٤٦ ؛ ص ٣ — ٢٤ الناشر : دار المعارف بمصر .

وفى أثناء هذه السنوات الثلاث تبدأ العلاقات الاجتماعية تتكون بين الطفل وبين أفراد أسرته وأقوى هذه العلاقات هى التى تربطه بأمه وليست هذه العلاقة بالعلاقة البسيطة فالأم هى مصدر اللذه للطفل وهى أيضا مصدر الألم والحرمان أحياناً ولكن بعد أن يكتشف الطفل فى جسمه المنطقة التناسلية ويأخذ فى البحث عن موضوع خارجى للحب بعد أن كان حبه مركزاً حول جسمه يحدث اختلاف هام فى التطور العاطفى لدى كل من الصبى ومن البنت .

فإن طاقة الحب التى أخذت تشع نحو الخارج تتجه نحو شخص من الجنس الآخر كأن فى هذا الاتجاه تمهيداً للاختيار الطبيعى الذى سيقوم به البالغ فيما بعد تلبية لنداء الحياة الجاهدة فى البقاء .

فالطفل الذكر سيحتفظ بأمه كموضوع خارجى لحبه أما البنت الصغيرة فإن تطورها العاطفى أكثر تعقيداً ووعورة . فهى كرضيعة متعلقة بأمها ومرتبطة بها برباطات حسية وعاطفية. فعليها لكى تسير وفقاً لقانون تطورها الطبيعى أن توجه عاطفتها نحو الأب وأن تقبل لا شعورياً ما تحدثه من حرج وقلق منافستها لأمها نتيجة لتحويل عاطفتها نحو أبيها . ولكن يجب أن نؤكد أن موقف التنافس هذا لا يتنافى مع قيام عواطف المحبة والحنان نحو الأم . قد يبدو ذلك تناقضاً ولكن ذلك

هو قانون الحياة العاطفية أن تجتمع العاطفتان المتضادتان فى شخص واحد ، إحداهما شعورية والأخرى لا شعورية . وقيام هذا التناقض العاطفى فى الإنسان هو من أهم عوامل الصراع النفسى الكامن فى كل شخص والذى قد يتفجر عند ما يختل التوازن النفسى أو يصاب المرء بصدمة عنيفة لا يقوى على تحملها .

ولكن تعلق البنت الصغيرةليس سوى مرحلة من مراحل تطورها العاطفى . ويقتضى التطور الطبيعى أن تتحول طاقة الحب من الأب إلى الشاب الذى ستختاره الفتاة ليكون شريك حياتها وأب أبنائها . أما إذا ظلت مثبتة فى حبها اللاشعورى نحو أبيها أى إذا وقف تطورها العاطفى عند هذه المرحلة الطفلية فستكون معرضة للشذوذ والانحراف نظراً لعدم إدماج التيارين الحسى والعاطفى وعدم تكاملهما . فهى بالغة من الوجهة الحسية ولكنها لا تزال طفلة من الوجهة العاطفية . وكثيراً ما يؤدى عدم النضج العاطفى إلى تعطيل الوظيفة الحسية وما يجب أن يصاحب تنشيطها من لذة وسرور .

إن الحقائق الخاصة بطبيعة المرأة من الوجهة العاطفية هامة جداً يجب أن تسترعى انتباه المربين . وإذا ذكرنا ما تعانيه البنت من شعور بالنقص يتضح لنا أن تطور المرأة النفسى أكثر صعوبة من تطور الرجل . وعلى ذلك تكون تربية البنت

أشق من تربية الصبى وتتطلب عناية أكبر وفهماً أدق لكى نضمن لها فى المستقبل حياة سعيدة متزنة . وإننا لا نبالغ إذا قررنا أن بعض الحركات التحريرية التى تدعو إليها بعض زعيمات الأحزاب النسائية المتطرفة صادرة عن عقد نفسية لم تجد حلها الطبيعى فصارت تبحث عن وسائل التعويض فى ميادين تفرض على المرأة أعباء لا تتلاءم مع طبيعتها ، فهى وسائل تعسفية للتعويض إن أرضت المرأة فى بادىء الأمر فأنها لا تلبث طويلا حتى تضيف ألواناً جديدة من الشقاء إلى الشقاء الذى قد تعانيه نتيجة بجهل المربين أو لما يعانونه أنفسهم من انحرافات نفسية .

وتوضيحاً لما سبق سنطبق الحقائق التى استخلصناها حتى الآن فى كلامنا عن الحب ومشكلات الزواج فى الفصل القادم .

الفصل الثالث

الحب ومشكلات الزواج

١ — هل الحب إثم ؟

من أبرز أوجه التطور التى نشاهدها فى مجتمعنا منذ حوالى ربع قرن خروج الفتاة من الدائرة الضيقة التى كانت تعيش فيها داخل المنزل إلى الحياة الاجتماعية الخارجية . فهى الآن تلتقى بالشاب فى مدرجات الجامعة وتشترك معه فى الحفلات والرحلات وغيرها من أوجه النشاط الاجتماعى . ومن جهة أخرى اتسعت أمام الفتاة العصرية ميادين جديدة للعمل ولكسب العيش . فهى قد تكون معاونة للرجل وقد تكون مزاحمة له تريد أن تقتحم أبواباً جديدة باسم ما اكتسبته من علم وما أبرزته من قدرة على القيام بأعمال كانت وقفاً على الرجال سواء فى مجال الأعمال الحرة أو فى القضاء والسياسة . ويبدو أن الدافع الأساسى للقيام بمثل هذه الحركة ليس فى الواقع ضرورة كسب العيش فقط بل الرغبة الملحة الغامضة فى التحرير وطلب الاستقلال وإثبات شخصيتها .

ولا شك فى أن مثل هذا التطور الإجبارى الخطير قد

أدى إلى حل بعض المشاكل التى كانت تعانيها المرأة ولكنه أثار فى الوقت نفسه مشاكل جديدة أو على الأقل زاد من حدة بعض المشاكل التى تنطوى عليها طبيعة المرأة ورسالتها الأصلية فى الحياة . فإذا كانت حركة التحرر والاستقلال قد أدت إلى إثبات شخصية المرأة فى الوجهة الاجتماعية فكثيراً ما يتم هذا النجاح الاجتماعى على حساب شخصيتها النفسية وتوازنها الوجدانى العاطفى .

ليس غرضى البحث فى حركة تحرير المرأة والحكم عليها ، بل الكشف عن بعض المشاكل التى تعترض المرأة فى حياتها الجديدة وتشخيص هذه المشاكل والإشارة إلى طرق معالجتها وحلها . وفيما يلى عرض وجيز لحالة نفسية من الحالات التى ترد للعيادات السيكولوجية ، حالة تبدو فى بادىء الأمر غريبة غير أننا سنحاول فهمها وتعليلها . قال لى السيكولوجى الذى قص على هذه الحالة .

« جاءتنى مرة طالبة جامعية وهى فى شبه ثورة وقالت لى : إن حياتى أصبحت لا تطاق ، إنى أصبحت عاجزة عن متابعة المحاضرات واستذكار الدروس والامتحان على الأبواب وأنا فى السنة النهائية فمستقبلى مهدد وأخشى أن يضيع ما كنت آمله من نجاح وتفوق فى خوض معترك الحياة العامة التى تنتظرنى .

« فحاولت أن أهدىء من عصبيتها وسألتها عن سبب

انفعالها وتأثرها : هل اقترفت ذنباً ، هل أساء أحد إليك ؟

ـ لم يسيء إلىّ أحد ولم أسئ إلى أحد بل أعتقد أنى ارتكبت ذنباً لا يغتفر ، خاصة وأنى طالبة جامعية كما تعلم !

ـ وما هو هذا الذنب يا آنسة ؟

ـ فقالت بعد فترة : تصور أنى بدأت أشعر بشعور غريب نحو أحد زملائى ، وأخشى أن يكون هذا الشعور هو الحب .

فاحمر وجهها ولا أدرى إذا كان سبب هذا الاحمرار هو الغيظ أو الخجل أو الحب نفسه وكأنها شعرت باحمرار وجهها فحاولت إخفاءه بتصنع الترفع وعدم المبالاة وظهرت على ملامحها إشارات خفيفة من القسوة .

ـ وهل الحب ذنب ؟

ـ هو على الأقل من دلائل الضعف والخذلان ، خاصة عند ما يتخذ هذه الصورة الخيالية التى وضعها الشعراء والتى أصبحت لا تتفق مع عصرنا الذى يمتاز بالكفاح والمنافسة والروح الواقعية .

* * *

تصور لنا هذه الحالة الصراع الذى يقوم فى نفس الفتاة عند ما يختل التوازن بين مطالب القلب وبعض المطالب الاجتماعية وتكون الفتاة عاجزة من التوفيق بينها ، وأعتقد أن أقرب حلّ

لهذه المشكلة هو أن نحاول الكشف عن دوافع الحب لدى المرأة والوقوف على دلائل الحب عند ما يكون صادقاً صحيحاً . وسنقصر الحديث على أهم مظاهر الحب الكامل عند ما يقتحم قلب الفتاة ويغمره من كل جانب دون مقاومة أو انحراف .

تغنى الشعراء بالحب ووصفوه وصفاً رائعاً جميلا وحلله الأدباء فى قصصهم وحاولوا تحديد وجوهه العديدة . ويبدو أن الكلمة الأخيرة الشافية لم يقلها بعد أحد كأن الصمت فى هذا المجال أفصح من الكلام . هل محكوم على الحب أن يظل لغزاً مغلقاً وسراً غامضاً . وإذا كان الشعراء لم ينجحوا فى التعبير عن كنهته وجوهره هل يحق للعلماء أن يقولوا كلمتهم فى هذا المجال ، ألا يخشى أن تزيد كلمتهم الجافة ما يحيط بالحب من رونق وجاذبية .

الحق أن علماء النفس وخاصة علماء التحليل النفسى قد نجحوا فى إماطة اللثام عن بعض أسرار الحب وهم متفقون مع الشعراء والقصصيين فى وصف علاماته الصادقة ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من غيرهم فى تعليل دوافعه وتفسير وجوهه المختلفة المتعددة ، السوية منها والشاذة .

ويمكن تلخيص أهم دلائل الحب الصادق الكامل فى النقط التالية :

أولا : الشعور الذاتى بالسعادة : ولتفسير هذا الإحساس

بالسعادة يجب أن نذكر ما يقوله التحليل النفسى عن تركيب النفس الإنسانية ــ فالذات الشاعرة أو الأنا شبيهة بساحة قتال تتصارع فيها القوى الغريزية اللاشعورية والانفعالات المكبوتة مع قوى أخرى هى أيضاً لاشعورية تكوّن ما يعرف بالأنا الأعلى وهو أشبه ما يكون بالضمير الخلقى البدائى الذى تكوّن منذ الطفولة الأولى بتأثير التربية من أوامر خلقية والتزامات يفرضها الوالدان على الطفل لكى يصبح اجتماعياً بمقاومة أنانيته وحبه لنفسه . وكثيراً ما يكون الأنا الأعلى صارماً فى معاملته للذات الشعورية . وإذا كان التوتر بين الأنا الأعلى شديداً نتج عنه الألم والقلق والشعور بالإثم . وبالعكس عند ما ينخفض هذا التوتر تعود الراحة إلى النفس وتشعر بالسعادة .

والحب فى نظر المحللين هو إسقاط الأنا الأعلى على المحبوب كأن الشخص عند ما يحب يبحث عن نفسه فى صورة المحبوب . ففى حالة الحب السعيد أى الحب المتبادل يكون المحبوب الذى يمثل الأنا الأعلى راضياً عن الآخر وهذا يفسر لنا حالة السعادة والاطمئنان التى يحياها الشخص .

ولكن هذه السعادة لا تكون دائماً صافية مستقرة بل يتخللها فترات من الشك فى صحة اختيار موضوع الحب كأن هناك فى النفس نزعة إلى التعذيب الذاتى تقاوم الميل إلى السعادة القصوى .

وبما أن الشخص الذى يحب يبحث إلى حد ما عن نفسه

أى بما أن المحبوب هو صورة للذات فمن الطبيعى أن يغالى الشخص فى قيمة محبوبه ولذا قيل إن الحب أعمى . ويترتب على هذه المغالاة فى قيمة المحبوب التقليل من قيمة الواقع وعدم الخوف من العالم الخارجى والشعور بالقوة فى مقاومة الصعاب والتغلب عليها إذ أن ما دام الأنا الأعلى راضياً عن هذا الحب وبما أن الأنا الأعلى يمثل فى النفس اللاشعورية سلطة الوالدين فلا بد أن تكون النفس راضية مطمئنة لا تخشى شيئاً .

وإذا كان حبُّ الآخر هو فى نهاية الأمر حباً ذاتياً فمن الطبيعى أن ينحصر الحب فى شخص واحد ويتركز فيه دون غيره وأن يصبح المحب تابعاً كلية للمحبوب محاولا دائماً أن يتجنب دواعى التوتر والخلاف خوفاً من أن يفقد السعادة والاطمئنان .

وأخيراً لا تكمل صورة الحب إلا بالإشارة إلى ما يعترى المحب من تغيير فى سلوكه الخارجى من جهة ومن مضمون تأملاته وتخيلاته من جهة أخرى . فلا يكون الحب صادقاً إلا إذا اصطبغ السلوك والتفكير بصبغة عاطفية وصاحبته حالات انفعالية خاصة من عطف وحنان تمتزج فيها دوافع الحياة العميقة بالعواطف والحركات المعنوية اللطيفة .

وإذا عدنا الآن إلى حالة الفتاة التى ذكرناها فى بدء هذا الحديث وجدنا أن مشكلتها تعود إلى عوامل لاشعورية ترجع إلى الطفولة وإلى تكوين ما سميناه بالأنا الأعلى . فهى تعانى

توتراً عنيفاً بين الجانب الشعورى فى نفسها والجانب اللاشعورى فهى تميل إلى تعذيب نفسها وإنكار ما يجب عليها أن تقوم به فى سبيل إرضاء حبها لذاتها . وقد أدى هذا التوتر الداخلى إلى الفصل بين العنصرين الأساسيين فى الحب ، العنصر الجسمى والعنصر العاطفى الروحى . فهى تعتقد أن الاستسلام للعواطف ضعف وأن الجانب الجسمى بمثابة انحطاط وإهانة لكرامتها .

فالطريق السوى الذى يجب أن يسير فيه الحب هو تحقيق التكامل بين نزعات الإنسان من حيث هو كل متكامل من جسم ونفس ، وكما أن الحب العاطفى البحت حب ناقص ، كذلك الحب المقصور على مجرد الرغبة الجسمية ناقص بدوره .

ومعظم المشاكل التى تعترض سعادة الإنسان فى حياته العاطفية وحياته الزوجية ترجع إلى هذا الفصل بين عنصرى الحب وبقدر تحقيق الانسجام بينهما تكون سعادة الزوجين وبالتالى سعادة الأطفال الذين هم بحق أجمل ثمرة للحب الصحيح السعيد .

٢ — الزواج والسعادة :

سنتناول فى الصفحات التالية مشكلات الزواج مع الإشارة إلى وسائل التكيف بين الزوجين ومختلف العوامل التى تهدد هذا التكيف .

إن موضوع الزواج متعدد النواحى تلتقى فيه مجموعة كبيرة من العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية والقضائية والروحية وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع الأسرة إذ الأسرة فى مجتمعنا المتحضر تقوم على زواج الرجل والمرأة طبقاً لتقاليد ونظم وقوانين يعينها المجتمع . والأسرة تعتبر بحق النواة الاجتماعية الأصلية . وعلى الرغم من أن كثيراً من وظائف الأسرة قد ضعف أو تلاشى مع تطور المدنية فلا تزال هناك وظائف أساسية تؤديها الأسرة إذا أراد المجتمع أن يحتفظ بكيانه وأن يضمن بقاء الثقافة والمدنية والحضارة التى حققتها منذ فجر الإنسانية حتى يومنا هذا . ويمكن تلخيص وظائف الأسرة فى النقط الآتية :

أولا : إعطاء العلاقة الجنسية بين الزوج والزوجة قيمتها القصوى من الوجهة الوجدانية والروحية إذ أن سعادة الإنسان تقتضى بأن يكون الرباط الذى يربط بين الزوجين رباطاً جسمياً وروحياً فى آن واحد .

ثانياً : تنشئة الأطفال فى جو من المحبة المتزنة والتفاهم الودى .

ثالثاً : إعداد الفرد لكى يصبح عضواً نافعاً فى المجتمع يدرك بوضوح ما عليه من واجبات وما له من حقوق ، لا ينشأ فقط على الأخذ والمطالبة بل يحسن العطاء والبذل .

رابعاً : إعداد الطفل بطريقة تدريجية ولاشعورية لكى

يحقق فى المستقبل زواجاً سعيداً ناجحاً .

وهذه الوظائف ، كما هو واضح ، مرتبطة بعضها ببعض . فالوظيفة الأولى خاصة بالزوجين وبطبيعة العلاقة التى يجب أن تقوم بينهما وهى الشرط الأساسى لتحقيق الوظائف الثلاث الأخرى الخاصة بالأطفال . فالأسرة لا تكمل إلا بهم كما أن شخصية كل من الزوج والزوجة لا تزدهر وتكتمل إلا بهم . غير أن عدم إنجاب الأطفال إذا كان غير متعمد ، لا يعنى حتما شقاء الزوجين وضرورة قطع أواصر الزوجية بينهما .

أما إذا كان عدم إنجاب الأطفال أمراً متعمداً مقصوداً مع عدم وجود أى مبرر طبى لذلك، فعندئذ نكون بصدد حالة شاذة مبعثها الأنانية الزائدة أوأعراض مرضية نفسية تتطلب العلاج .

ودراسة الزواج من الوجهة السيكولوجية تقتضى البحث فى الأمور الآتية :

ما هو المقصود بالسعادة الزوجية — هل يمكن دراسة هذا الموضوع دراسة علمية وما قيمة البحوث التى عملت فى هذا الميدان — ما هى العوامل التى تضمن السعادة الزوجية وبالتالى أسباب الشقاء بين الزوجين — وأخيراً هل فى إمكان عالم النفس أن يساعد الزوجين على إزالة أسباب الشقاء وإعادة الوفاق والانسجام بينهما . وسنحاول الإجابة على هذه الأسئلة مع الإشارة بصفة خاصة إلى الدور الهام الذى

تؤديه الزوجة فى تدعيم الأسرة وتحقيق سعادتها .

لا شك فى أن معنى السعادة ومعنى النجاح من المعانى النسبية. فالسعادة حالة نفسية ذاتية تختلف باختلاف الأشخاص وباختلاف حاجات كل شخص وميوله وأغراضه ومثله العليا ، بل تختلف باختلاف العوامل اللاشعورية التى تعين الميول والاتجاهات والتى قد تحول دون تحقيق السعادة على الرغم من توافر الأسباب الخارجية الظاهرة التى يُعتقد عادة أنها كافية لتحقيق السعادة والرضى . ومعنى النجاح يختلف عن معنى السعادة فهو مرتبط أكثر من السعادة بالعوامل الثقافية والاجتماعية ومن الخطأ أن يُتخذ النجاح كما يبدو للمجتمع معياراً لسعادة الأفراد . فقد يكون النجاح الاجتماعى ستاراً يخفى وراءه التعاسة التى يعانيها الشخص فى حياته الداخلية الخاصة .

ثم إن السعادة ليست حالة مستقرة يمكن الاحتفاظ بها فى ركن من أركان النفس بعيداً عن معترك الحياه وعن الجهود التى يتطلبه الكفاح اليومى . بل ما تمتاز به السعادة من جاذبية وفتنة وإغراء يرجع إلى أنها هدف يثير الاهتمام ويدفع إلى العمل والنشاط والإنتاج وبذل الخير والمحبة للآخرين . إذ أن اكتمال السعادة لا يتم إلا بنمو جميع إمكانيات المرء وإزدهارها فى مجال الأسرة والمجتمع .

وكما أن السعادة ليست حالة مستقرة فهى ليست من جهة

أخرى بذل النشاط بإسراف ومواصلة العمل إلى حد الإنهاك لجمع المال واكتساب الجاه والمجد . فالطموح الأعمى يُلهى صاحبه عن نفسه ويحول دونه ودون الغذاء العاطفى الذى يحقق الاتزان النفسي والسعادة الحقة .

فالسعادة إذن وإن كانت حالة ذاتية ونسبية ، مرتبطة بالاتزان النفسى وبما أن للاتزان النفسى مظاهر خارجية يمكن مشاهدتها فى سلوك الشخص فيترتب على ذلك أنه من الممكن تعيين أهم شروط السعادة بالوقوف على أسباب الاتزان النفسى وعوامله . ومعنى الاتزان قريب من معنى الاعتدال وهو يوحى دائماً بوجود طرفين أو جانبين متقابلين يسعى المرء فى التوفيق بينهما . ويتخذ هذان الجانبان أشكالا عدة تبدو مختلفة فى الظاهر وإن كانت متشابهة ومتحدة فى جوهرها ، نذكر منها الحقوق والواجبات ، الأخذ والعطاء ، حب الذات وحب الغير ، الإمكانيات والمطالب ، الوسائل والأهداف ، الحاجة إلى الأمان والاطمئنان والميل إلى المجازفة والاستزادة إلخ . . . والتوفيق بين هذه الأزواج من الأطراف لا يتم أبداً بصورة ساكنة مستقرة نهائية بل يتطلب مواصلة العمل وبذل النشاط لإعادة تحقيقه كلما تعرض الاتزان للاختلال بتغير الأحوال . فأحوال المعيشة اليومية متغيرة حتما والحياة فى صميمها مقاومة وكفاح.

ويمكن توزيع نشاط الإنسان فى ميادين ثلاثة : المهنة ،

الأسرة ، المجتمع الخارجى أو بعبارة أخرى العمل ، الحب ، وشغل أوقات الفراغ . والنجاح فى هذه الميادين الثلاثة كفيل بتحقيق الاتزان والسعادة ، بشرط أن يبذل الشخص المجهود الملائم المؤدى إلى التكيف . وبالنجاح فى هذه الميادين يرضى الإنسانُ ثلاث حاجات جوهرية الحاجة إلى الأمان والاطمئنان ، الحاجة إلى العطف والحب ، الحاجة إلى تقدير الآخرين والسمعة الطيبة . ويبدو أن الأسرة نظراً لكونها نواة الحياة الاجتماعية وصورة مصغرة لها تتيح للشخص فرصة إرضاء هذه الحاجات الأساسية وخاصة الحاجة إلى العطف والحب . فسعادة الأسرة تقتضى من جميع أفرادها المساهمة فى أعمال المنزل والاهتمام بشئونه المادية ثم خلق جو من التفاهم والمحبة والانسجام وأخيراً تنظيم أوقات الفراغ وإتاحة أسباب الترفيه عن النفس . ولذلك يُعد تحقيق السعادة فى حياة الأسرة من أشق الأهداف وخاصة تحقيق التكيف بين الزوج والزوجة وبينهما والأطفال .

فالتكيف الذى يجب أن يحققه الإنسان فى مجال عمله بينه وبين رؤسائه أو أقرانه يتطلب أحياناً كثيراً من التضحية والجهد غير أنه أخف وطأة من التكيف المطلوب من الزوجين إذ أن الصلة التى تربط الإنسان بعمله تكون متقطعة وخارجية إلى حد ما فى حين أن الصلة التى تربط بين الزوجين مستمرة داخلية يجب أن تصل إلى حدّ الاتحاد والتوحيد ، وهذا الاتحاد

يشمل جميع النواحى الجسمية والنفسية . فعلى الزوجين التوفيق بين أمزجة وعادات وأخلاق ومعتقدات وميول خاصة بكل واحد منهما . وهذا أمر شاق عسير لا يمكن أن يتم فى وقت وجيز بل يتطلب مواصلة المجهود سنوات طوال .

* * *

وعند ما نحلل معنى السعادة[1] نجد أن الطابع الذى يغلب عليها هو أنها حالة نسبية غير ثابتة تتوقف خاصة على عوامل ذاتية غالباً ما تكون مجهولة من الشخص .

وكما أن هذه العوامل الذاتية مرتبطة بالظروف الخارجية وتتفاعل معها قام بعض علماء النفس بدراسة السعادة الزوجية دراسة موضوعية إحصائية بطرح بعض الأسئلة على مجموعات كبيرة من المتزوجين . وقد وُجد أن نسب حالات الزواج السعيد تختلف باختلاف الطبقات فهى أعلى بوجه عام فى الأوساط المتعلمة وخاصة الأوساط الجامعية . كما أنه لوحظ أن نسبة حالات السعادة فى النساء المتزوجات تقل عادة عن نسبتها فى الرجال المتزوجين ، وهذه النتيجة يمكن تفسيرها إلى حدّ كبير . فقد سبق أن تحدثنا فى الفصل الثانى عن تطلع المرأة إلى المطلق والكمال وبالتالى عن الصعوبات الجمة التى تعترض سبيلها

---

(١) انظر « مشكلة السعادة » فى كتاب « شفاء النفس » للمؤلف — الفصل الأول — الطبعة الثانية ١٩٥٣ — دار المعارف بمصر .

إلى السعادة . ونعلم من جهة أخرى أن عقل المرأة يميل إلى التأليف وإلى النظرة الكلية أكثر من ميله إلى التحليل والتفكير المنطقى الاستدلالى . فهى تحس أكثر من الرجل أن الزواج فعل اجتماعى يقتضى تكامل النواحى الجسمية والعاطفية والروحية داخل محيط الأسرة . فهى لا تفهم أن يفصل بين هذه النواحى وإن قبلت الفصل مرغمة طائعة فسيكون هذا القبول على حساب سعادتها الداخلية وتوازنها النفسى . أما الرجل فهو أميل إلى التقسيم والتشتت ، يوزع نشاطه وبالتالى يوزع عوامل إرضائه بين الأسرة وبين عمله الخارجى ومشاغل مهنته وفى إمكانه أكثر من المرأة أن يلجأ إلى عمليات التعويض .

وهناك نتيجة أخرى أسفرت عنها البحوث التى أشرنا إليها . وهى أن حالات السعادة الزوجية تزداد مع طول مدة الزواج . فإذا تناولت الدراسة حالات الزواج التى تتراوح مدتها بين سنة وست عشرة سنة فتكون نسبة حالات السعادة ٧٥ ٪ فى حين أن هذه النسبة تهبط إلى ٦٨ ٪ فى حالات الزواج التى لا تزيد المدة فيها عن ست سنوات .

ومن اليسير تعليل هذه النتيجة : فالسنوات الأولى فى الحياة الزوجية تتطلب مجهودات شاقة لتحقيق التكيف بين الزوجين الجديدين وذلك لعدة أسباب :

أولا : الأسباب التى ترجع إلى المرحلة السابقة للزواج

والممهدة له . وتختلف هذه المرحلة فى الشرق باختلاف الأوساط وبالنسبة إلى كل من الرجل والمرأة . فقد يُفرض الزواج على البنت فرضاً دون أخذ رأيها فى اختيار الزواج . وفى هذه الحالة كثيراً ما تشعر البنت بأنها ضحية أو فريسة فتدخل الحياة الزوجية وهى حذرة متحفظة تلجأ فى بادىء الأمر إلى أساليب الدفاع والمقاومة أو تحتمى فى موقف من الاستسلام والخضوع السلبى بدون تعاون ولا مشاركة . كما أن الرجل فى هذه الحالة يدخل الحياة الزوجية وعقليته عقلية السيد المسيطر أو المالك الأنانى الذى أضاف إلى مُتعه متعة جديدة ووسيلة جديدة لإرضاء سيطرته وسلطته أو وسيلة جديدة للتعويض عما يعانيه من نقص وتقصير فى مهنته أو فى مجال نشاطه الاجتماعى . ولا شك فى أن مثل هذا الجو لا يصلح مطلقاً لتهيئة الزواج السعيد إذ أن الزواج فعلٌ اجتماعى متكامل النواحى يقتضى التبادل ، الأخذ والعطاء ، والتأثير المتبادل الحكيم المؤدى إلى الانسجام .

أما فى حالة إمكان التعارف بين الشاب والشابة سواء قبل الخطوبة أو فى أثنائها فإنه يصبح من الأيسر التمهيد لتحقيق الانسجام بينهما بعد الزواج . غير أنه فى هذه الحالة أيضاً تنشأ بعض العقبات التى سيكون من شأنها تعكير الجو فيما بعد . وأول هذه العقبات التصنع الذى يلجأ إليه كل من الخطيبين

للظهور فى أجمل صورة خلقية لا لتضليل الآخر دائماً بل للاحتفاظ به وتنمية الجاذبية ، خاصة إذا كان دافع الزواج المصلحة المادية أو الاجتماعية أكثر منه دافع الحب والتقدير المتبادل.

أما العقبة الثانية فقد تنشأ من طبيعة الحب نفسه . فقد يبحث المحب لا عن قرين أو رفيق بل عن بديل لشخص آخر وكثيراً ما يكون الأب أو الأم وذلك فى حالة تعلق البنت بأبيها تعلقاً جنسياً لا شعورياً أو تعلق الشاب بأمه . أو قد يتخذ الحب شكلا شعرياً خيالياً مسرفاً فى الشعر والخيال وهو ما يعرف بالحب الرومنتيكى الخالص . نعم إن عنصر الشعر والخيال من أهم مقومات الحب لأن العاطفة من أهم دعائم الشخصية المتكاملة المتزنة . ولكن كما أن الشخصية تفقد توازنها إذا طغت العاطفة وطغى الخيال على العقل والفكر فكذلك يفقد الحب قدرته على الخلق والابتكار ويُصبح عقبة بدلا من أن يظل قوة فعالة إذا طغى الخيال على الواقع وإذا تاق العاشقان إلى مثل أعلى أسمى من أن يحققه الإنسان فى مجتمع تزداد مشاكله يوماً بعد يوم . فالحب الشعرى ينمو فى الغفلة والأحلام وكثيراً ما يكون مآله الخيبة واليأس . أما الحب الذى يريد أن يكون رباطاً وثيقاً بين اثنين ، جسماً وقلباً وروحاً ، وأن يكون درعاً قوية لوقاية الزوجين من أحداث الدهر فيجب عليه أن يكون يقظاً من حين إلى آخر وأن يقوم على دعامة العاطفة من جهة ودعامة

العقل المستنير من جهة أخرى ، أى على التوفيق بين الخيال والواقع .

وأخيراً سواء أتيحت فرصة التعارف أو لا فإن المرحلة السابقة لعقد الزواج كثيراً ما تكون منشأ متاعب للخطيبين نظراً لما يدور حول مشروع الزواج من مناقشات بين الأهل فيما يختص بالمسائل المالية والمادية الأخرى من سكن وإقامة وكيفية فرش المنزل إلى آخره من هذه الأمور التى لا بدّ من تنظيمها . هذا فضلا عن المتاعب التى قد تنشأ من غيرة الإخوة والأخوات بحيث يصل الخطيبان إلى عتبة الزواج وهما فى حالة توتر عصبى أو إنهاك مما يهدد تحقيق السعادة الزوجية منذ مطلعها ، خاصة إذا أضفنا متاعب شهر العسل حيث يحتدم الصراع بين الخيال والواقع .

وقبل أن نعرض لمشاكل التكيف فى بدء الزواج نشير إلى نتيجة أخرى من نتائج الأبحاث التى تناولت نسبة حالات السعادة والشقاء فى الزواج. ففى أحد البحوث كانت نسبة السعادة الزوجية ٤٥ ٪ لدى الزوجات و ٥١ ٪ لدى الأزواج . فطُرح على أفراد المجموعة السؤال الآتى : « إذا كان فى إمكانك أن تضغط على زر فتصبح بأعجوبة أنك لم تتزوج قط فهل تضغط على هذا الزر ؟ فكانت النتيجة ٩٤ ٪ لا و ٦ ٪ نعم »

ومغزى هذه التجربة أن الشخص يعجز عن تقدير سعادته أو شقائه حق التقدير . وأنه ما دام يمتلك الشىء فهو يغفل عن بعض مزاياه ولا تتضح هذه المزايا إلا إذا هدّد هذا الشىء

بالضياع والفناء . ثم إن السعادة ليست حالة مستقرة ثابتة وأنها تتحقق فى السعى وراءها أكثر من امتلاكها أو فى الاعتقاد بأننا حصلنا عليها .

الواقع أن حياة الإنسان لا تسير على وتيرة واحدة من السعادة أو الشقاء . بل هى مزيج من الاثنين ومع مرّ السنوات يتعود المرء الحياة فى جوّ يلتقى فيه النقيضان من فرح وحزن بحيث يصبح الألم أحياناً عنصراً من عناصر تحقيق السعادة . فيصبح المثل الأعلى أكثر اعتدالا من ذى قبل وشروط السعادة والهناء أو على الأقل شروط الرضى أيسر تحقيقاً .

٣ — عند مستهل الحياة الزوجية :

قد يؤلم القارئ أن يعرف أن المشكلات التى تعترض الزوجين الحديثين تبدأ منذ اللحظات الأولى ، فى هذه الفترة التى تعرف بشهر العسل . فلنتتبع الزوجين منذ حفلة الزفاف لتحليل نفسيتهما ووصف موقف كل منهما من الآخر . تم عقد الزواج بما يحيط به من ضمانات وتأييدات اجتماعية . اشترك الأهل والأصدقاء فى الفرح وقدموا التهانى الودية والتمنيات الطيبة بالسعادة والرفاهية وأخذوا ينصرفون الواحد بعد الآخر . . . انتهى الحفل معلناً بانتهاء عهد وبدء عهد جديد . وطلباً للراحة والاستجمام بعد متاعب الاستعداد للزواج يقوم العروسان عادة برحلة قصيرة

لتمضية شهر العسل فى بقعة هادئة . ولنفرض أن كلا من الزوجين مستعد لبذل أقصى مجهوده من لطف وحب وتسامح لكى يكون هذا الشهر جدير بتسميته ، أن يكون فترة هناء صاف وسعادة حلوة . غير أن الأمر ليس فى هذه الدرجة من اليسر والسهولة كما يتصوره الشعراء وكتاب القصص الغرامية . فهناك مشكلات عدة تعترض الزوجين فى بدء حياتهما الجديدة : مشكلات خاصة بتكيف كل واحد للآخر والتوافق معه من الجهة الجنسية والمزاجية والأخلاقية .

هل شهر العسل هو امتداد لفترة الأحلام التى سبقت الزواج ، أم مرحلة استعداد للحياة الجديدة وما تتطلبه من واجبات واقعية ؟ أعتقد أن كلما كان الانتقال من عالم الأحلام إلى عالم الواقع سريعاً كان التكيف المطلوب أسهل تحقيقاً . ومن أهم عوامل نجاح هذا التكيف أو فشله ، طبيعة الدور الذى يؤديه كل من الزوجين نحو الآخر . الواقع أن الشخص يدخل الحياة الزوجية فى بادئ الأمر وعلى وجهه قناع مستعار ثم يسقط هذا القناع تحت ضغط الظروف وضرورة مواجهة مواقف جديدة وخلق صور جديدة من العلاقات بين شخصين ولا يلبث الشخص طويلا حتى يسترد طبعه الأصلى ويخضع للاتجاهات والعادات التى اكتسبها من قبل . وكثيراً ما يحدث تعارض بين الدور الجديد الذى يجب على كل من الزوجين

أن يتعلمه لكى يؤديه على أحسن وجه وبين الأدوار التى اعتاد أن يقوم بها قبل الزواج . وتبعاً لدرجة النضج العاطفى والاجتماعى التى وصل إليها الشخص تكون درجة السهولة فى تعلم الدور الجديد.

يعتقد بعض الشبان أن العامل الأساسى للسعادة الزوجية التشابه التام بين الزوجين من حيث الأذواق والأفكار والاتجاهات العاطفية . فكل واحد من العروسين يريد أن يجد فى الآخر صورة صادقة لنفسه وأن الاتحاد بين نفسين يجب أن يقوم على تجاوب تام بينهما . إن طلب مثل هذا التجاوب التام ينطوى على خداع خطير ولا بد أن يؤدى إلى الخيبة . فالاتحاد فى الغرض لا يعنى بالضرورة الاتحاد التام فى الآراء والعواطف والاستجابات الحسية والانفعالية . نعم إن المثل الأعلى للزوجين أن يصبحا شخصاً واحداً وأن يتحدا اتحاداً كلياً إذا أمكن . غير أن الوحدة التى تربط بين الزوجية يجب أن تكون وحدة حية منظمة تسمح للعناصر التى تتكون منها بأن تنمو وتزدهر فى جو من التبادل الحر والتعاون المثمر .

إن الإلحاح الذى يبديه أحد الزوجين فى أن يكون الآخر شبيهاً به كل المشابهة لا يرجع إلى قوة الحب وكماله بل إلى ضعفه ونقصه . فهو دليل على عدم نضج الحب ، كأن الشخص عاجز عن أن يحب شخصاً آخر سوى نفسه ، والإسراف فى حب الشخص لنفسه صورة من صور الحب كما يشعر به الطفل .

ومثل هذا الموقف يؤدى حتما إلى عرقلة التكيف الجنسى فى بدء الحياة الزوجية إذ يكون الدور الذى يؤديه الزوج أو الزوجة دور الطفل المدلل .

ثم هناك عامل آخر ، غير الحب الذاتى المسرف ، يدفع الشخص إلى البحث عن صورة صادقة لنفسه وهذا العامل هو الخوف . وقد برع أصحاب التحليل النفسى فى وصف أثر الخوف فى العلاقات الزوجية . فمن الوسائل التى يلجأ إليها المرء لمقاومة الخوف التشبه بالشىء المخيف . ألا ترى الطفل الذى يخاف من الغول أو من الكلب يتقمص شخصية الغول أو الكلب ويسلك سلوكهما محدثاً فى نفسه فى آن واحد الخوف والأمان . ولننظر كيف أن هذا الموقف المزدوج من خوف وعدوان يلعب دوره فى العلاقات الأولى بين الزوجين وكيف أن التكيف الجنسى والعاطفى يكون عسيراً لدى الزوج الذى يبحث فى الآخر عن صورة صادقة لنفسه .

لا شك فى أن الحب عند بدء العلاقات الزوجية يتخذ شكلاً مزدوجاً متناقضاً ، ينطوى على العدوان والهجوم من جهة وعلى الدفاع والاستسلام بدرجات متفاوتة من الرضى من جهة أخرى . ويرجع هذا الازدواج المتناقض إلى الاختلاف القائم بين وظيفة كل من الزوجين . فالحب الذى سيؤدى فى الحالات السوية إلى أنبل صورة من الاتحاد بين نفسين يبدأ فى شكل

صراع ينطوى حتما على عنصر العدوان .

ومن المعلوم أن العدوان كثيراً ما يصحب الخوف لدفع مصدر الخوف أو تجنبه . وكذلك كثيراً ما يشعر المعتدى بالخوف لأنه يخشى من المعتدى عليه أن يرد على هذا العدوان بعدوان آخر . وعندما يبحث أحد الزوجين عن شخص آخر شبيه به كل المشابهة أو يعتقد أنه كذلك فإنه لا يسلك هذا السلوك إلا لتهدئة خوفه من عدوان الآخر .

إنه من السهل أن نجد تأييداً لهذا الوصف فى سلوك الحيوانات . طبعاً إننا لا نذهب إلى القول بأن سلوك الإنسان شبيه تمام المشابهة بسلوك الحيوانات . فلا يمكننا أن نجهل تطور الحب الإنسانى فى أشكاله ومظاهره تحت تأثير العوامل الروحية والعقلية والعاطفية وأثر الحضارة والتربية والأخلاق . غير أنه من الخطأ أيضاً أن نتجاهل الجزء المشترك بيننا وبين الحيوانات . فإن جهلنا للجانب البهيمى فى الإنسان إما أن يعرضنا لانفجار هذا الجانب دون الاستعداد لمواجهته بحزم وحكمة أو يجعلنا نحرم أنفسنا مما قد تمده بنا هذه القوى الحيوانية من حيوية وطاقة نستخدمها فى تحقيق الأغراض الروحية والاجتماعية الراقية .

فمن الواجب إذن على الزوجين الحديثين أن ينظر كل واحد منهما إلى الآخر على أنه يواجه كائناً حياً وشخصاً واقعياً لا مخلوقاً خيالياً يتصوره حسب رغباته أو مخاوفه . فلا ينظر إليه من

وجهة جنسية بحتة كما لا ينظر إليه من وجهة مثالية وروحية بحتة فيجرده من حساسيته ومن ميوله الجنسية . وليست هذه النظرة الروحية البحتة دليلا على الاحترام والتقدير بل مبعثها هو الخوف ، بل أحياناً الكبت المرضى .

ذكرنا فيما سبق أحد العوامل التى تجعل تحقيق التكيف فى بدء الحياة الزوجية أمراً عسيراً . وأرجعنا هذا العامل إلى عدم نضج الحب ووقوفه عند صورة من صوره الطفلية . وسنتناول فى الفقرة التالية عوامل أخرى تتعلق بمختلف الأدوار التى قد يقوم بها كل من الزوجين وبعض هذه الأدوار التى يرجع عهدها إلى سنى الطفولة والمراهقة تتعارض مع طبيعة الحياة الزوجية وواجباتها الجوهرية .

٤ — آثار الماضى :

يركز علم النفس الحديث اهتمامه فى دراسة السلوك ودراسة الاستجابات التى تصدر عن الشخص فى مختلف المواقف الاجتماعية . وهذه الاستجابات تتعين أشكالها وأساليبها تبعاً لما اكتسبه المرء من عادات وما تعلمه من اتجاهات وتبعاً لنظرته إلى الأشخاص الآخرين الذين يتعامل معهم . فاختلاف المواقف التى تواجهه يستلزم منه أن يغير أحياناً من أسلوبه فى الاستجابة والمعاملة ويعتبر مدى قدرته على التغير مقياساً

للتكيف الناجح . غير أن هذه القدرة محدودة ، تحدها الأنماط السلوكية التى اكتسبها الشخص فى سنى الطفولة والمراهقة .

وعند ما يتزوج الشخص فإنه يحمل معه هذه الأنماط السلوكية القديمة وكثيراً ما يكون غافلا عن وجودها فيعتقد أن سلوكه يصدر عن تفكير وروية فى حين أن هناك عوامل لا شعورية تؤثر تأثيراً كبيراً فى تعيين السلوك وتوجيهه وما يكون التفكير إلا وسيلة للتبرير أو لإخفاء الدافع الحقيقى .

والإنسان طول حياته يؤدى أدواراً مختلفة وتظهر هذه الأدوار وتكتسب منذ الطفولة . فأحياناً يلعب المرء دور المسيطر المتعسف العنيد الذى يريد فرض رأيه وتنفيذه فوراً دون مناقشة ولا مماطلة . وأحياناً يقوم بدور الشخص الخاضع المستسلم الخائف الذى يخشى بذل المجهود ولا يبغى إلا راحة البال والاطمئنان . وأحياناً أخرى يؤدى دور المتملق الذى يلجأ إلى الخداع والمواربة للوصول إلى غايته . وهذه الأدوار وغيرها تتفاعل بعضها مع بعض بحيث يصعب تمييزها بوضوح وتكون فى نهاية الأمر اتجاهات لاشعورية تتبلور فيما يسمى بأسلوب الحياة .

والمظاهر السلوكية المختلفة التى تحدث بين الزوجين فى حياتهما اليومية ليست فى معظم الأحيان سوى تعبيرات رمزية للأساليب الاستجابية التى تكونت فى الطفولة والمراهقة ، كما أن المواقف الجديدة التى يقفها كل زوج من الآخر تكاد

تكون صورة صادقة للمواقف التى اشترك فيها الشخص فى أسرته عند ما كان طفلا ، مواقفه مع والديه ومع إخوته وأخواته . وتوضيحاً لذلك نذكر الأمثلة الآتية :

فقد تقوم الزوجة فى نظر زوجها بالأدوار الآتية : دور الأم التى يعتمد عليها الطفل كل الاعتماد وعندئذ يكون سلوك الزوج نحو زوجته شبيهاً بسلوك الطفل الذى يأوى إلى صدر أمه طالباً حمايتها ومتعطشاً إلى عطفها وحنانها . ثم قد تنقلب الزوجة فى نظر الزوج إلى هذه الأخت التى كان يكرهها الزوج عند ما كان طفلا أو تقوم بدور الأخ الذى كان يحبه . ولكن ما يحدث غالباً هو سيطرة صورة الأم فى لاشعور الزوج فيقوم التعارض بين الدور القديم الذى كان يؤديه عندما كان طفلا والدور الجديد الذى يجب عليه أن يتعلمه من حيث هو زوج يتعامل لا مع أم له بل مع زوجة تنتظر منه أن يكون رجلا بالغاً قوياً واثقاً من نفسه لا طفلا مدللا خائفاً .

وما يقال عن الزوج يقال أيضاً عن الزوجة فقد تنظر إلى زوجها نظرتها القديمة إلى الأب الذى كانت تخشاه أو تحترمه احتراماً أعمى أو الذى كان يرضى كل نزواتها ويغض النظر عن أخطائها ونقائصها . فهى تبحث فى زوجها عن صورة الأب وتستجيب له بالأسلوب نفسه الذى كانت تصطنعه عند ما كانت طفلة .

غير أنه يجب أن نقول إن استعادة هذه الأساليب القديمة فى الحياة الزوجية تحدث بدرجات متفاوتة تبعاً لدرجة النضج الانفعالى الذى يكون الشخص قد وصل إليها . فإن تحقيق النضج الانفعالى ونمو الحياة العاطفية نمواً سليما دون كبت مرضى ودون تثبيت فى مراحل النمو الأولى يحرر العقل والفكر من القيود اللاشعورية ويخفف وطأة الأساليب الدفاعية والاستجابات العدوانية التى تهدد العلاقات الزوجية بالتوتر والفشل .

ومن الاتجاهات المكتسبة فى الطفولة والتى تؤثر فيما بعد تأثيراً بليغاً فى موقف كل زوج من الآخر الاتجاه الخاص بوظيفة الجنس وقيمته . إن القاعدة الأساسية فى التربية الجنسية هى أن يربى الصبى بحيث يتجه نحو الرجولة الجسمية والخلقية دون احتقار الجنس الآخر ودون أن يلقن أن جنسه هو الأفضل بل أن الجنسين مكملان الواحد للآخر .

وكذلك يجب أن تربى البنت بحيث تتجه نحو الأنوثة الجسمية والخلقية دون الخوف من الجنس الآخر ودون تلقينها أو الإيحاء إليها بأنها ناقصة بل أن كل جنس لا يكمل إلا بالآخر ولنتخذ حالة البنت التى توجه فى تنشئتها الجنسية توجيهاً شاذاً لتحليل هذه الحالة ومعرفة العواقب السيئة التى ستهدد فيما بعد السعادة الزوجية .

إن المقارنة التى تقوم بها البنت بينها وبين أخيها قد توحى

إليها أنها دونه من حيث التركيب الجسمى وقد تثبت معاملة الوالدين هذا الاعتقاد فى ذهن البنت . ويصحب هذا الاعتقاد شعور بالألم والخيبة لا يلبث أن يكبت فيما بعد . ثم تأتى مرحلة الطفولة المتأخرة التى تسبق مرحلة المراهقة وفى هذه المرحلة يتجه اهتمام البنت نحو العالم الخارجى والنشاط الاجتماعى والتحصيل المدرسى . وعند بدء المراهقة تأخذ العواطف الجنسية الغامضة تثور من جديد فتشعر البنت بالجاذبية الطبيعية نحو أقرانها من الجنس الآخر . وقد يحدث فى هذه المرحلة أن تصطدم العواطف الناشئة بالتقاليد الاجتماعية السائدة ويعجز الوالدان أو المربون عن فهم دلالة هذا التطور الجديد فى النمو العاطفى . فبدلا من تهذيبه وتوجيهه بلين وحكمة يحدث سلوك الوالدين التعسفى شعوراً بالإثم والخطيئة فى نفسية البنت فترتد العواطف إلى أعماق النفس ثم تبحث عن وسيلة للإرضاء لا تحرمها التقاليد الاجتماعية فتتعلق البنت بزميلة لها أكبر منها سناً أو بمدرستها التى قد تكون مدفوعة بشىء من الإسراف إلى بذل الحب والحنان بصورة تكاد تكون شاذة . وعندئذ يتكون فى البنت اتجاه جديد هو التعلق الغرامى بشخص من نفس الجنس والنظر إلى الجنس الآخر نظرة خوف أو بغض أو اشمئزاز . وكثيراً مايحدث أن تستنكر الفتاة الناشئة أنوثتها أو تخجل منها ويحدث كل ذلك فى هامش الشعور ثم يتغلغل فى أعماق النفس

اللاشعورية ويتكتل مع الاتجاهات الشاذة التي نشأت في الطفولة.

ثم تجتاز الفتاة مرحلة المراهقة بدرجات متفاوتة من النجاح أو الفشل في تحقيق التكيف العاطفي وتقبل على الزواج دون مقاومة صريحة ولكن بشيء من الفتور ، جاهلة الدوافع اللاشعورية الشاذة التي قويت في أثناء المراهقة وعاجزة عن أن تطهر نفسها من هذه الشوائب ومن موقفها السلبي نحو الجنس الآخر نتيجة لاستنكار أنوثتها . وعند ما ستواجه الزوجة بواجباتها الجديدة ستجد صعوبة كبيرة في تحقيق التكيف المطلوب منها مما يؤدى إلى تعكير صفو الحياة الزوجية . وهنا نلمس ضرورة تثقيف الشباب من الجنسين بالثقافة السيكولوجية التي تنير لهم خبايا النفس الإنسانية وترشدهم إلى وسائل التغلب على الاتجاهات المنحرفة وتحقيق التوافق في بدء الحياة الزوجية .

٥ — الغيرة :

أشرنا في الفقرات السابقة إلى بعض العوامل التي تعكر صفو الحياة الزوجية وتهدد السعادة العائلية ، كالتفاوت الكبير بين الزوجين من حيث المستوى الثقافي أو الاقتصادى والاختلافات البينة في الآراء والمعتقدات والعادات ، ثم عدم التكيف العاطفي والجنسي ومن أسباب عدم التكيف لدى المرأة استنكار أنوثتها أو الخوف اللاشعورى من الجنس الآخر

والإحساس الخفي بأن العلاقة الجنسية تنطوى على الاعتداء والأذى.

والتحليل النفسي ، كما نعلم ، يوضح لنا أسباب هذه المواقف الشاذة مرجعاً إياها إلى بعض خبرات الطفولة وعدم تصفية بعض العقد النفسية اللاشعورية وخاصة عقدة أوديب.

ونودّ الآن أن نفصّل القول فى سبب هام من أسباب شقاء الزوجين ، هو الشعور بالغيرة ، هذا الانفعال الغريب الذى يلعب دوراً هاماً فى حياة الإنسان منذ طفولته ويطبع بطابعه كثيراً من العواطف الاجتماعية . ويجب ألا ننسى شقيقه الأقرب « الحسد » . فالغيرة والحسد توأمان يسيران جنباً إلى جنب فى ظل توأمين آخرين هما الحب والبُغض. وهذه الانفعالات الأربعة هى بمثابة الاتجاهات التى تعين أركان أو محاور المجال الوجدانى وما يقوم عليه من دوافع وحوافز وميول .

وتسلك الغيرة فى نشأتها ونموها وظهورها مسالك شتى متنوعة . فقد تتكون فى الظلام وتنمو ببطء ولا تكاد تظهر فى مجال الشعور حتى تجد صاحبها فى حالة خور وإعياء عاجزاً عن إبداء أى مقاومة فتعمل الغيرة عملها الخبيث الدفين فى هدم الأمل وتحطيم الصحة النفسية والجسمية فى آن واحد . وأحياناً أخرى تتفجر الغيرة كالصاعقة فتهز بنيان الحياة الزوجية هزّاً عنيفاً تاركة وراءها الخراب والدمار .

ليس من السهل تحليل الغيرة ووصف ما يعانيه الغيران

من حالات نفسية نظراً لتضارب هذه الحالات وتعقدها . فقد نجد الشخص الذى يسلك سلوك الغيران يؤكد أنه لا يعرف الغيرة وأن الغيرة ليست من أخلاقه . كما يحدث أن الشخص الذى يحق له أن يغار على زوجه يجهل تماماً الظروف التى من شأنها أن تبعث الغيرة كأنه لا يريد أن يرى أو أن يسمع وذلك تحت تأثير دوافع لاشعورية . ولكن إذا حللنا الغيرة كما تبدو فى شعور الشخص فيمكننا تعريفها وتفسيرها بكل سهولة : فهى إحساس مزعج مؤلم ناشىء عن كره الغيران مشاركة شخص آخر فى حقه بالشخص المحبوب .

فالغيرة عادةً تنشأ فى موقف ثلاثى يضم الحبيبين والمنافس وتنطوى على عدوان موجه نحو المنافس وعلى الخوف من فقدان موضوع المنافسة . فى مثل هذه الحالة يرجع منشأ الغيرة إلى ما يشعر به الغيران بما جرح كرامته وبما يهدد حقّه فى التملك المطلق للمحبوب .

وقد تنشأ الغيرة دون وجود شخص ثالث منافس فتنحصر فى موقف ثنائى يضم الحبيبين فقط وتصبح الغيرة مجرد تعلق غرامى مطلق لا يعرف الغضب ولا المنافسة بل يثير باستمرار الخوف من فقدان المحبوب دون وجود أى أمر جدير بتبرير هذا الخوف . فيغار الغيران من كل شىء كأن يغار من النسيم الذى يداعب شعرَ حبيبته .

ويمكن إرجاع جميع حالات الغيرة إلى التفاوت بين الرغبة والواقع ، بين النزعة إلى التملك المطلق وما يهدد هذه النزعة ، بين ما يمكن أن نسميه بالشراهة الوجدانية والقدرة على إشباع هذه الشراهة .

ويؤكد لنا التحليل النفسي أن الغيرة التي يثيرها تدخل المنافس لا تحدث في نفس الغيران هذه الألوان من العذاب المضنى إلا لأنها تحرك عقدة قديمة ترجع إلى الطفولة هى عقدة أوديب التي تجعل الصبي يتعلق جنسياً بأمه وينظر إلى أبيه نظرة الخصم إلى منافسه . وبقاء هذه العقدة يرجع إلى أن الحب الذي كان يشعر به الطفل ولا يزال يشعر به الشخص في كبره هو من نوع الحب التملكي الأناني الذي لم يتطور إلى الحب القائم على إنكار الذات وعلى هبة الذات بدون قيد ولا شرط . ونستنتج من ذلك أن الغيرة ليست حتماً ودائماً من مستلزمات الحب .

فالحب الذي يوحد بين قلبين ويجعل منهما قلباً واحداً يتنافى مع الغيرة . وبقدر ما يكون الحب حباً تملكياً تكون الغيرة أشد درجة وأكثر إيلاماً وتعذيباً .

ولا يتحتم لإثارة الغيرة أن يكون الموقف ثلاثياً فعلاً وأن يوجد المنافس في الواقع . فكثيراً ما تكون الغيرة غير مدعمة بأمور خارجية بل يكون مبعثها الوهم والتخيل المرضى .

وقد تكون الغيرة ضرباً مما يسميه علماء النفس بالإسقاط أى إلصاق صفة ذاتية بشخص آخر واتهامه بما يعتلج فى النفس من رغبات لاشعورية آثمة كوسيلة من وسائل التبرير والدفاع عن النفس . فالغيران يسقط على زوجه رغبته اللاشعورية فى الفرار من قيود الزوجية أو خيانة العهد الذى قطعه على نفسه . وهذه الرغبة عندما تدخل مجال الشعور تنقلب إلى عكسها : الزوجة هى التى ترغب فى الخيانة وتسعى إليها . ويصبح التأويل فى ذهن الزوج تأويلا مرضياً وليس فى إمكان أقوى الأدلة على براءة المرأة تغيير رأى الزوج الغيران ، لأنه يجد فى محاربة زوجته ما يخفف الألم الذى تحدثه فى نفسه رغباتُه المكبوتة .

وهناك نوع آخر من الغيرة مصبوغ بصبغة مرضية واضحة ولا يمكن فهمه إلا فى ضوء العلاج بالتحليل النفسى . فمن الحالات الشاذة تعلق الشخص بشخص من نفس الجنس . وقد يتزوج مثل هذا الشخص بعد أن يكون انحرافه قد كبت إلى حدّ كبير . غير أن المكبوت لا يلبث أن يظهر فى صورة مقنعة . فهذا الزوج المنحرف يعانى اتجاهات لاشعورية نحو الأنوثة أى نحو الاتصاف بصفات الأنثى . فهو فى آن واحد يتقمص شخصية زوجته ويتمنى أن يكون له منافس لكى يرضى نزعاته نحو الأنوثة عن هذا الطريق الالتفافى ،

أى عن طريق تقمص شخصية زوجته . بل لا يكتفى أن يتمنى وجود ما ينافسه فى حب زوجته ، بل يسعى من حيث لا يدرى إلى تهيئة الفرص لجذب المنافس وخلق الموقف الثلاثى .

إن هذا التحليل قد يبدو للبعض تعسفياً خيالياً وبعيداً عن الواقع ، ولكن ما العمل والنفس الإنسانية أكثر عمقاً وظلمة من قاع البحار وأعقد مسلكاً من الغابات الاستوائية ؛ والأدلة على صحة هذا التفسير كثيرة تقدمها لنا العيادات السيكولوجية فقد وجد علماء التحليل النفسى ارتباط الغيرة بالجنسية المثلية فى عدد كبير من الحالات التى عالجوها .

الواقع أن عوامل الانحراف والمرض النفسى تتفاعل باستمرار مع عوامل الصحة والسواء . ويمكن أن نؤكد أن غير قليل من التصرفات التى تبدو سليمة ومعقولة ، خاصة فى حالات الطلاق ، هى فى الواقع تصرفات مرضية تحتمى وراء ستار من التبرير الكاذب . ونعتقد أن المشرع الذى يريد تنظيم أمور الزواج والطلاق من واجبه أن يقيم حساباً للعوامل النفسية اللاشعورية التى تعين كثيراً من هذه التصرفات التى تبدو سليمة فى حين أنها بعيدة عن الطريق السوى .

٦ — تصدع الحياة الزوجية :

رأينا فى الفقرة السابقة أن الغيرة سبب هام من أسباب

شقاء الزوجين وأنها دليل على نوع من الحب سميناه بالحب التمليكي ، هو مزيج من الشره الوجداني ومن الخوف . شره وجداني يلح في الأخذ وفي الاستيلاء ويجهل العطاء والبذل والتبادل ، وخوف من فقدان الطرف الآخر لضعف الثقة في النفس والشعور بالنقص . وكثيراً ما تنفجر الغيرة بعد فترة من التوترات العصبية الصامتة فتهز بعواصفها بنيان الحياة الزوجية . ولكن هنالك خطراً آخر يهدد سعادة الزوجين لا يقل أثره عن هذه المشاحنات العنيفة التي تثيرها الغيرة وإن كان هادئاً ساكناً وهذا الخطر هو تحويل الحياة الزوجية إلى سلسلة من الأفعال الآلية الرتيبة التي تتتابع في جو من الاستسلام والرضى السلبي . في مثل هذا الجو من الجفاف العاطفي يفقد الحب قيمته كعامل من عوامل تقوية النفس وتكامل الشخصية . ويكتفي كل زوج بالقيام بما يعتقد أنه الواجب . ولا شك في أن القيام بالواجب في جو من عدم الاهتمام والمبالاة لا يلبث أن يحوّل الواجب إلى أمر ممل .

ولكي يتفادى الزوجان الحديثان التعرض لهذا الخطر يجب عليهما أن يذكرا أن الزواج ليس عقداً كبقية العقود التي تنظم معاملات الناس بعضهم مع بعض . ليس الزواج نهاية عهد يتصف بعدم الاستقرار ثم الدخول في عهد من الثبات والاستقرار ، لا يتطلب مواصلة المجهود لكي يحتفظ

كل زوج بزوجه . كما أن الزواج لا يعنى الدخول فى منطقة مجهولة غير ظاهرة المسالك يستسلم فيها المرء للصُدَف ولإلهامات اللحظة الراهنة .

إن الزواج عملية بناء وتكوين وتقدم متصلة الحلقات ، تعترضها عقبات يجب أن تكون موضع تبصر وتفكير ، عملية تتطلب أحياناً بعض التضحيات ولكنها تتطلب دائماً بذل المجهود لكى تسير إلى الأمام . فمن النادر أن يكون الحب فى بدء الحياة الزوجية حباً كاملاً ناضجاً : فإن الجانب الحسى فى الحب — وخاصة عند المرأة — فى حاجة إلى تربية دقيقة ، على الزوج أن يقوم بها بكل رفق ولطف مدة طويلة من الزمن . فقد قررنا مراراً أن طريق الأنوثة أشد وعورة من طريق الرجولة وأن المرأة تستكمل نموها الجنسى فى السنوات الأولى من حياتها الزوجية .

إن اتحاد الزوجين جسماً وقلباً لا يمكن أن يتم دفعة واحدة ، فالتوافق العاطفى بينهما أمرٌ يجب تعلمه وككل تعلم فإنه يقتضى اجتياز مرحلة من المحاولات والأخطاء والقدرة على الاستفادة من التجارب السابقة . فإن حسن الروية مع الصبر والمثابرة كفيل بتذليل العقبات والصعاب التى تعترض الحياة الزوجية فى أطوارها الأولى .

ذكرنا أن عقد الزواج ليس عقداً تجارياً كبقية العقود ينص بجانب الالتزامات والواجبات على العقوبات التى سيطبقها

القانون فى حالة عدم القيام بالواجبات أو عدم تنفيذ الالتزامات . إن المثل الأعلى فى الزواج أن يشعر كل من الزوجين وفى كل لحظة من حياتهما أنه مُقبل على شريك حياته حراً راضياً لا مجبوراً مضطراً ، تحت ضغط تعهد لا يلبث أن يثير الندم . فإذا كان كل من الزوجين يشعر بأنه يهب نفسه للآخر فى جو من الحرية والتقدير المتبادل فلا شك أن هذا الشعور بالحرية أقوى عامل من عوامل إسعاد الزوجين وتدعيم أواصر الحب والاتحاد .

بهذه الكيفية فقط يمكن محاربة الملل الذى يستولى على كثير من الأسر والذى يحول الحياة المنزلية إلى سلسلة من حالات القلق والتذمر واضطراب المزاج .

وكذلك لا بد من هذا الجو من الحرية والتقدير المتبادل لكى تحتفظ الأمانة الزوجية بكل قيمتها . فقد يظن بعضهم أن معيار الحياة الزوجية الناجحة هو أن يكون كل من الزوجين أميناً نحو الآخر لا يقدم على عمل من شأنه أن يمس سمعة الأسرة وشرفها . إن مثل هذا المعيار معيار سلبى إذا كانت الأمانة مفروضة فرضاً ومبعثها هو الخوف من الآخر والرغبة فى تفادى المواقف المعضلة المحرجة فإن مثل هذه الأمانة التى يتحملها الزوج كحمل ثقيل لا قيمة لها لأن الأمانة الحقة هى قبل كل شىء أمانة القلب والفؤاد لا أمانة العبد المكبل بالقيود المادية . يجب أن تصدر الأمانة عن حب صادق يقوم

على المحبة لا على التملك والسيطرة ويجب أن يستند الإخلاص إلى الاعتقاد القوى والشعور العميق بأن الزوج فى نظر الزوجة وبأن الزوجة فى نظر الزوج هو الشخص المختار وأن القلب عرش مقدس لا يحتله إلا هذا الشخص المختار .

يتضح لنا مما سبق أن الحب فى الزواج لا يمكن أن ينمو ويقوى ويزدهر إلا فى جو من الثقة والحرية والتقدير . فإذا سلك أحد الزوجين سلوكاً يثير الشك والريبة أو إذا حاول أن يفرض قيوداً تعسفية لا مبرر لها أو إذا صدرت عنه أقوال أو أفعال تمس كرامة زوجه وتجرح إحساسه فإن بنيان الحياة الزوجية يأخذ يتصدع شيئاً فشيئاً ولا يلبث الفتور الذى أصاب الجاذبية المعنوية التى كانت تجمع بين الزوجين أن يصيب الجاذبية الجسمية فيزداد التوتر بينهما ويصبح التكيف العاطفى والجسمى أمراً عسيراً . ومما يضاعف سوء الموقف اعتقاد كل من الزوجين أنه ضحية الآخر فيحاول التعويض عما يعانيه من الاستياء والخيبة بالسعى وراء ما يرضى رغباته وميوله خارج نطاق الأسرة . وقد يركز الزوج كل اهتمامه فى مهنته والزوجة فى العناية الزائدة بأطفالها . وقد يكون التصرف حلاً للموقف غير أنه حل ناقص لأن فيه اعتداء على حقوق الزوجية . والدليل على ذلك أن الزوجة قد تغار من مهنة زوجها ويغار الزوج من أطفاله .

ومن الأسباب التى تعكر صفو الحياة الزوجية وتزيد التوتر بينهما عدم فهم كل من الزوجين طبيعة الآخر والفصل بين العنصرين اللذين يكونان الحب : العنصر الجسمى والعنصر العاطفى . فمن واجب الزوج أن يدرك أن المرأة تقدر إلى أقصى حد دلائل العطف والحنان وأنها فى حاجة إلى أن تشعر أنها موضع إعجاب وتقدير ، وأنها ليست مجرد وسيلة لإشباع رغبات زوجها . ومن جهة أخرى يجب على الزوجة أن تدرك أن مطالب الطبيعة البشرية فى الزواج ليست مقصورة على مجرد العطف والحنان بل تشمل رغبات جسمية فى حاجة إلى الإشباع وبهذا الصدد ينبغى أن نعلم أن عدم الأمانة الزوجية لا يرجع إلى المغريات التى قد تصادف المرء فى الخارج بل إلى تجاهل مطالب الزوجية الجسمية وعدم إرضائها . لا نريد أن نقول إن ما يجب اتباعه هو الاستسلام للغريزة والاهتداء بنزعاتها بل إنه من الضرورى إخضاع الغريزة لنور العقل ولكن دون أن يؤدى سلطان العقل إلى إماتة الغريزة وخنقها بل إلى إرشادها وتهذيب قواها الحيوية .

٧ — الطلاق :

تمر الحياة الزوجية بمراحل مختلفة ، شأنها فى ذلك شأن الكائنات الحية والمنظمات الاجتماعية . وتتطور خلال هذه

المراحل العلاقات بين الزوجين ويتخذ الحب الذى يربط بينهما صوراً جديدة من القوة أو الضعف، من التوتر أو الهدوء .
وعوامل هذا التطور متعددة بعضها خارجى وبعضها داخلى ومن العوامل الخارجية التغير الذى يلحق بالمستوى الاقتصادى للأسرة إما صعوداً أو هبوطاً ، والحوادث الطارئة من أمراض وحروب وكوارث طبيعية إلخ . . . أما العوامل الداخلية الملازمة لطبيعة الأسرة فأهمها اتساع دائرة الأسرة بولادة الأولاد مما يؤدى إلى ظهور وظائف جديدة وتكوين علاقات جديدة أو إعادة تنظيم العلاقات الزوجية بحيث تضم عاطفة الأبوة والأمومة .

ويكون تطور العلاقات الزوجية مصحوباً بتطور الحب بين الزوجين ، ونعنى بالحب الحب الإنسانى الواقعى الذى تتكامل فيه عناصر الحس والعاطفة والعقل ، لا الحب البهيمى الأعمى ولا الحب الخيالى الأفلاطونى، لا الأنانية التى تتقنع بقناع الحب بل هذه الحركة الشاملة التى تدفع الشخص إلى أن يهب نفسه للآخر ويعمل على إسعاده ، هبة تتجدد فى كل لحظة لأنها لا تقوم على نزوة متقلبة أو رغبة عابرة أو غرض رخيص بل لأنها تقوم على وعد أبدى!

إن طريد الفردوس يحن دائماً إلى الجنة المفقودة وإذا كان الإنسان كثيراً ما يخطىء اختيار الوسائل ويضل الطريق

المؤدى إلى الخير والسعادة فإنه لا يمكنه أن يسكت هذا الصوت الذى يتصاعد من أعماق نفسه داعيا إياه إلى تحقيق جميع إمكانياته من حق وخير وجمال .

هذا هو الدعاء الذى يظل يسمع صوته ، إن عالياً أو خافتاً ، خلال هذه المراحل التى يجتازها الحب الكامل عندما ينمو فى جوّه الطبيعى وفى تربته الطبيعية أى فى جو الحياة الزوجية وتربتها . ويمكن تحديد هذه المراحل فى ثلاث : مرحلة التكوين الأول وهى مرحلة اكتشاف وحماس ثم مرحلة الأزمة والتوتر الممهدة لنضج الحب ، فترة توتر وعواصف لا بدّ منها لاستمرار عملية النمو وأخيراً مرحلة النضج وهى مرحلة هدوء واستقرار تكون الاختلافات التى كانت قائمة بين الزوجين قد تلاشت فيزداد التشابه بينهما فى العادات والأخلاق والآراء بل قد يصل إلى حدّ التشابه الجسمى. تلك هى صورة تخطيطية لمراحل الحياة الزوجية : تكوين ثم أزمة ثم نضج . غير أن كل مرحلة جديدة لا تنفى السابقة بل تتمثلها وتحتفظ بأهم عناصرها لكى تواصل سيرها فالحركة الطبيعية للنمو والاكتمال ليست تشتت وتفريق بل حركة صعود لعناصر وعوامل أكثر غزارة وثراءً . ثم يجب أن نقول إن كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث الكبرى تمرّ بعدة أطوار جزئية ثلاثية فى تركيبها أيضاً أى أطوار جزئية متعددة من النمو والأزمة والنضج .

وسبق أن تحدثنا عن بعض هذه الأزمات وبعض عوامل تصدع الحياة الزوجية كالغيرة والملل والجفاف العاطفى والمظاهر العدوانية غير أننا لم نتناول بعد هذه الأزمات التى تؤدى إلى انهيار الحياة الزوجية وقطع الصلة نهائياً بين الزوجين ونقصد الأزمات التى تنتهى بهجر منزل الزوجية والطلاق . وليس غرضنا أن نتناول جميع العوامل والأسباب التى تؤدى إلى الطلاق بل سنقتصر على ذكر أهم العوامل النفسية .

إن الطلاق كالزواج خاضع للتشريع وللإجراءات القانونية والسلطة التى تحكم بالطلاق أو ببطلان الزواج أو بفصل الزوجين تعتمد فى حكمها على أدلة ووقائع خارجية ولا تعتنى كثيراً بالدوافع العميقة التى تتفاعل فى نفس الزوج أو الزوجة . نعم إنه من واجب القاضى ومن واجب من يعاونوه أن يحاولوا تقريب وجهات النظر وإرشاد الزوجين لتصفية الجو وإتمام الصلح بينهما . ولكن من النادر أن تؤدى هذه المساعى إلى نتيجة مُرضية . إذ كثيراً ما تكون التهدئة مؤقتة ثم تعود الأزمة من جديد وتنبعث فى صورة أعنف مما كانت عليه . وذلك لأن الأسباب التى يستند إليها طالب الطلاق ليست هى الأسباب الحقيقية بل هى نوع من التبرير . فهو يعتقد أن الطرف الآخر هو السبب الوحيد لشقائه وبؤسه وأن الوسيلة الوحيدة لينال قسطه من السعادة، وإن كانت سعادة جزئية، هى أن تتاح له

الفرصة ليبدأ حياة زوجية مع شخص آخر .

قد يكون الأمر هكذا فى بعض الأحيان ولكن المحللين النفسيين يعتقدون أن معظم حالات الطلاق ترجع إلى عوامل نفسية لاشعورية وتدخل فى نطاق علم النفس المرضى ، أى أن الشخص الذى لا يرى حلا للأزمات التى تتخلل بالضرورة الحياة الزوجية إلا الانفصال والطلاق ليس بالشخص السوى وأن السبب الرئيسى الجوهرى الذى يجعله يفكر فى الطلاق ثم يهدد به ثم ينفذه هو مرض فى نفسه ، هو عدم نضجه العاطفى ، هو هذه الأساليب السلوكية التى اكتسبها عند ما كان طفلا والتى كانت عاجزة عن تحقيق التكيف الناجح فى ميادين نشاطه المختلفة مع والديه وإخوته وأصدقائه وزملائه فى المدرسة وفى المهنة . فهو يستخدم فى حياته الزوجية نفس الأساليب الخاطئة التى اعتاد استخدامها من قبل ، الأساليب التى توحى بها الأنانية الزائدة وعدم الثقة فى النفس والخوف من المسئولية وحب التملك والسيطرة الزائفة . وقد تصل هذه الاتجاهات فى السلوك إلى حد المرض النفسى الحق الذى ينتهز مئات الفرص التى تقدمها الحياة اليومية لكى ينشط ويتحرك وينفجر فى جو من القلق والتوتر .

والمشاهد أن الشخص المنحرف مثل هذا الانحراف النفسى لا يجد ما ينشده من سعادة فى محاولته الزوجية الثانية أو الثالثة

لأن أسباب الداء موجودة فيه وهو يحملها معه مهما تغيرت الظروف الخارجية وتنوعت شخصية الزوجة الثانية أو الثالثة إلا إذا كانت الزوجة الجديدة منحرفة نفسياً بنوع من الانحراف يتلاءم مع انحراف الزوج فيكونان وحدة شاذة لا يمكن أن تقوم إلى حين إلا فى جو خاص من الشذوذ والتوتر .

إن الدراسات النفسية التى قام بها المحللون النفسيون فى عياداتهم لحالات الطلاق أو الرغبة فى الطلاق بينت بوضوح أن الطلاق لا يصلح أبداً ليكون علاجاً لمثل هذه الأزمات . بل العلاج الناجع هو أن يفهم الراغب فى الطلاق الدوافع اللاشعورية التى تجعله يفكر فى مثل هذا الحل فعليه أن يعالج نفسه من العقد التى تعمل فى أعماق نفسه بل من المفيد — كلما هدد أحد الزوجين الآخر بالهجر والطلاق — أن يستشير كل من الزوجين المحلل النفسى وأن يطلبا العلاج الملائم لحالتهما . فمن شأن العلاج النفسى أن يزيد المعالج استبصاراً ومعرفة بنفسه وأن يمكنه من تقدير الأمور تقديراً واقعياً . ومن شأن هذا الاستبصار وهذا التقدير السليم أن يجعل المرء يدرك أن الأزمات والمشاكل ملازمة للطبيعة البشرية وأنها ضرورية لرقى الإنسان وصعوده فى سلم الكمال وأن بعض الأزمات العنيفة التى تهز بناء الحياة الزوجية لا حل لها سوى التضحية .

٨ — الأطفال :

في بدء كلامنا عن الزواج ومشكلاته أشرنا إلى أهم وظائف الأسرة وذكرنا أن الوظيفة الأولى هي إعطاء العلاقة الجنسية بين الزوجين قيمتها القصوى من الوجهة الحسية والروحية لأنه لا يمكن تحقيق السعادة بين الزوجين إلا إذا كان الرباط الذي يربط بينهما رباطاً جسمياً وروحياً في آن واحد . ثم تأتي الوظيفة الثانية وهي الخاصة بتنشئة الأطفال وإعدادهم للحياة الاجتماعية .

وقد تناولنا الوظيفة الأولى بالبحث والدراسة مبينين طبيعة الحب المعقدة وكيف يتم التوفيق بين الغريزة الجنسية وبين الحب من حيث هو عاطفة سامية تقوم على المحبة والبذل وإنكار الذات ، ثم رأينا كيف تتطور العلاقة بين الزوجين مارة بمراحل التكوين والأزمة والنضج . وفي كلامنا عن أزمات الحياة الزوجية تعرضنا لمشكلة الطلاق وذكرنا بعض العوامل التي تدفع أحد الزوجين إلى هجر الحياة الزوجية وطلب الطلاق واتضح لنا أن في كثير من حالات الطلاق تلعب الانحرافات النفسية دوراً خفياً تحت قناع من التبريرات العقلية .

ونود الآن أن نتناول مشكلة الطلاق في ضوء وظيفة الأسرة في تنشئة الأطفال وإعدادهم للحياة الاجتماعية . وسنقتصر

على الموضوعين الآتيين : أولا هل عدم إنجاب الأطفال سبب كاف لتبرير الطلاق . ثانياً : ما هو مصير الأطفال من الوجهة النفسية فى بيت هدّمه الطلاق .

للإجابة على السؤال الأول وهو هل عدم إنجاب الأطفال سبب كاف لتبرير الطلاق يجب أن نعرف أولاً ما إذا كان للزواج غرض أولى أساسى وغرض ثانوى فرعى . هل الغرض الأساسى هو الذى يتحقق فى بدء الحيـــاة الزوجية وهو إشباع الرغبات الجنسية والعاطفية والروحية لكل من الزوج والزوجة فى حين يكون إنجاب الأطفال هو الغرض الثانوى المتفرع من الأول ؟ أو على العكس من ذلك نعتبر أن غرض الأسرة الأولى والأساسى هو التناسل وإنجاب الأطفال فى حين يكون إشباع الرغبات الجنسية والروحية مجرد تمهيد للتناسل؟

لا شك فى أن علماء الاجتماع والتشريع سيقررون أن الغرض الأساسى للحياة الزوجية هو إنجاب الأطفال لضمان بقاء الجنس وأن من واجب الأفراد خدمة المجتمع والعمل على بقائه ونموه . ولسنا محتاجين إلى جمع الأدلة لتدعيم هذا الرأى فقوانين الطبيعة البشرية وتاريخ الإنسانية والنظم التشريعية والاجتماعية كل هذه الأمور تؤيد القاعدة التى تجعل إنجاب الأطفال الغرض الأساسى للحياة الزوجية .

وإذا كانت هذه القاعدة صحيحة فهل يتحتم أن يكون

عكسها خطأ وأن عدم إنجاب الأطفال يستلزم حتماً فصل الزوجين بعضهما عن بعض بالطلاق .

ليس هذا الموضوع مما يسمح بحله بنعم أو لا فلا بد من تمييز الحالات المختلفة التى تعترض الباحث والنظر فى أسباب عدم الإنجاب والتناسل . فالقاعدة التى ذكرناها تحرم طبعاً تعمد منع النسل لأغراض أنانية وفراراً من المسئوليات أما إذا كان عدم التناسل راجعاً إلى أسباب خارجة عن إرادة الشخص دون تعمد ولا قصد إرادى فنى هذه الحالة يجب التمييز بين أمرين : أولا عدم توافر الشروط العضوية لإتمام الزواج وفى هذه الحالة يعتبر الزواج كأنه لم يكن ويحق للسلطة التشريعية إبطال عقد الزوج : ثانياً : توافر الشروط العضوية التى تسمح بإرضاء الغريزة الجنسية مع عدم توفر الشروط الفسيولوجية أى فى حالة العقم الناتج عن نقص فى وظائف الجهاز التناسلى . فنى هذه الحالة نجد اختلافات بيّنة بين علماء الاجتماع وعلماء النفس . فمن الوجهة الاجتماعية البحتة قد يبرر العقم طلب الطلاق غير أن علماء النفس ينظرون إلى أعمق من ذلك فيدافعون عن حقوق الفرد عندما يطغى سلطان المجتمع ولا يراعى حق الفرد فى تنمية ذاته وتحقيق إمكانياته العاطفية والروحية ، ما دام استخدام هذا الحق لايلحق بالمجتمع أى ضرر إيجابى .

ولتوضيح ذلك نقول إن الرجل الذى يطلق زوجته لأنها عقيم لا يسلك هذا السلوك إلا لأن حبه ناقص ولأنه ينظر إلى زوجته لا من حيث هى شخص يتمتع بالفكر والحرية وبالخصائص التى تميز الإنسان عن الحيوان بل من حيث هى آلة ووسيلة . فالمشكلة ترجع إذن إلى طبيعة الحب القائم بين الزوجين وأن طلب الطلاق لسبب عقم الزوجة لا يختلف فى جوهره فى نظر علم النفس عن طلب الطلاق لأسباب عدم الوفاق المزاجى والخلق ، أى أننا بصدد أسباب نفسية معظمها لاشعورية ترجع إلى عدم النضج الانفعالى .

وما نريد أن نؤكده هو أنه من الممكن تحقيق السعادة الزوجية فى حالة عدم إنجاب الأطفال لأن الغرض الأساسى الذى يرمى إليه الحب هو اكتمال شخصية الرجل والمرأة أحدهما بالآخر . ثم يجب أن نذكر أن العواطف مرنة إلى حد كبير وأن الميول قابلة للتحويل والإعلاء وأن الطاقة العاطفية التى كانت ستبذل فى رعاية الأطفال وتنشئتهم يمكن إشباعها فى ميادين أخرى من النشاط الاجتماعى أو الفنى أو العلمى دون تفكك الحياة الزوجية .

نعم إن أنوثة المرأة لا تكتمل إلا بالأمومة ولكن فى حالة تعذر هذه الأمومة العضوية هناك أنواع من الأمومة الروحية قد ترضى المرأة وتمنحها لوناً من السعادة قد لا تقل عن سعادة

الأمومة العضوية خاصة أن معيار السعادة معيار « ذاتي » .

وما يقال عن الزوجة يقال أيضاً عن الزوج . فهو يشعر بأن الطفل الذى أنجبه والذى يحمل اسمه هو إتمام لشخصيته الاجتماعية وتزكية لرجولته ولكن فى حالة تعذر الأبوة العضوية توجد كذلك أنواع من الأبوة الروحية فى إمكانه تحقيقها فى صحبة شريكة حياته دون أن يضطر إلى تحطيم قلب والحكم على امرأة ، لا ذنب لها ، بأن تعيش على هامش المجتمع .

ومما يدعم رأينا هذا هو أن الرجل الذى يعجز عن أن يحب زوجته من حيث هى غاية فى ذاتها لا من حيث هى مجرد أداة أو وسيلة لا يتردد فى طلب الطلاق حتى ولو كان له أطفال . نعم إن وجود الطفل قد يحمل الزوج أو الزوجة على التريث قبل الإقدام على الطلاق غير أن وجود الطفل لا يحول دائماً دون تفكك الأسرة وتحطيمها ، مما يقيم الدليل على أن إنجاب الأطفال لم يكن الغرض الأساسى للحياة الزوجية . فإن كانت الزهرة الجميلة أو الثمرة الطيبة دليلاً على جودة الشجرة وسلامتها فليست الزهرة أو الثمرة هى جوهر الشجرة . فلا بد أن تكون الشجرة فى جوهرها سليمة لكى تزدهر وتنتج الثمار . وهل من الحكمة أن نقتلع الأشجار التى لا تثمر وأن نعد شكلها الجميل وظلها الوريف أمراً لا قيمة له . فالظل قد يكون رمزاً للأمان وحاجة الإنسان إلى الأمان والطمأنينة لا تقل عن حاجته إلى

الطعام والشراب فقد تفوق السعادة المعنوية ما قد تقدمه لنا الحواس من لذة ومتعة .

٩ ــ الأطفال هم الضحايا :

تقول الباحثة الاجتماعية الفرنسية لويز هرڤيو Louise Hervieu في حديثها عن جرائم الأحداث : « لا يوجد أطفال مذنبون بل الأطفال هم دائماً ضحايا » . لا شك فى أن الطفل فى السنوات الأولى من حياته هو محصلة العوامل الوراثية والبيئية التى تؤثر فيه وتتفاعل باستمرار فى ميدان لا يكاد توجد فيه فى بادئ الأمر أى مقاومة صادرة من الطفل نفسه . فهو فى حاجة لكى ينمو إلى تلقى الآثار المادية والمعنوية فى الوسط العائلى .

وفى حالة اضطراب نشأته وإصابته بشتى الانحرافات فى طبعه وسلوكه ، أى عندما يكون ضحية الظروف التى تحيط به ، هل يقع الذنب كله على الوالدين وعلى البيئة العائلية . ألا يمكن القول بأن الوالدين إلى حد كبير أو صغير هما بدورهما من ضحايا الظروف التى أحاطت بطفولتهما . قد يكون ذلك ، وإذا استرسلنا فى هذا اللون من التفكير والتعليل لانتهينا إلى القول بأن المذنب الأكبر هو المجتمع ونظمه الناقصة الظالمة . ولكن مثل هذا القول لا يجدى ولا يفيد ويجب أن نذكر دائماً

أن فى إمكان الإنسان بفضل ما أوتى من عقل وإرادة أن يقاوم الآثار السيئة التى تحيط به وأن يصبح إلى حد كبير مسئولا عن نفسه وسيد مصيره .

وما دام مستقبل الإنسان من اتزان أو انحراف ، من توافق أو فشل ، من سعادة أو تعاسة يتوقف إلى مدى بعيد على سنوات الطفولة وطبيعة الجو الاجتماعى الذى اكتنف هذه السنوات فمن واجبنا أن نبحث جدياً فى أثر الأسرة التى فككها الطلاق فى تنشئة الطفل وتكوين اتجاهاته وتوجيه ميوله .

من الحقائق الثابتة عقلا وتجريبياً أن البيئة الوحيدة الملائمة لنمو الطفل الجسمى والنفسى ولتنشئته الاجتماعية هى البيئة العائلية ، هذه المجموعة الموجدة المكونة من الأم والأب والابن . فى هذه البيئة يجد الطفل المعونة المادية والمعنوية ، وأحسن الفرص لتقوية شخصيته ولتعلم أساليب التضامن والتعاون وضبط النفس . وإذا اختل توازن الأسرة فلا بد من أن يؤدى هذا الاختلال إلى اضطراب تنشئة الطفل بطريقة صالحة متكاملة . وقد يختل هذا التوازن إما بوفاة أحد الوالدين أو بهجره المنزل أو بتغيبه عنه فترات طويلة أو بتفكك الأسرة بالطلاق . ففى جميع هذه الحالات يحرم الطفل من سند قوى هو فى حاجة إليه لنموه الوجدانى والاجتماعى . غير أن أثر كل حالة قد يختلف عن الآخر والآثار التى يحدثها الطلاق أو انفصال الوالدين تفوق

فى خطرها آثار الوفاة أو الغياب ، لأن الأولى تحدث فى جو من التوتر والبغض وتبدأ هذه الآثار تعمل عملها بطريقة خفية خبيثة قبل إتمام الطلاق كما أنها تستمر بعده . فحالة الطلاق وإن كانت تعتبر من الوجهة القانونية انتهاء وخاتمة لمرحلة سابقة فهى من الوجهة النفسية والاجتماعية حالة معلقة غير منتهية ولا مغلقة على نفسها ومن شأن الحالات المعلقة أن تحدث القلق المستمر وأن تثير النزاعات القديمة وأن تبعث ألواناً جديدة من الصراع النفسى .

ولا يقتصر أثر العائلات المفككة على حالة الطفل من الوجهة النفسية فحسب بل يتعداه إلى سلوكه الاجتماعى . وتوضح لنا الدراسات الاجتماعية والقضائية مدى هذا الأثر فى جرائم الأحداث . فقد وجد أن نسبة الأطفال المجرمين الذين يأتون من عائلات فككها الطلاق والانفصال أو وفاة أحد الوالدين تتراوح بين ٥٠ و ٦٥ فى المائة . ولا يتناول هذا التقدير الكمى إلا الأحداث الذين أحيلوا إلى محاكم الأحداث ودخلوا الإصلاحيات . ولا شك فى أن هناك حالات أخرى ظلت محصورة داخل جدران المنزل ولم تتحول إلى أعمال عدوانية ضد المجتمع .

ويظهر من بعض الإحصاءات التى تناولت جرائم الأحداث وانحرافات سلوكهم أن نسبة الأسر التى يمكن اعتبارها من

الأسر السوية هي ١٢ ٪ فقط في حين أن نسبة الأسر المفككة بلغت ٨٨ ٪ . ومن أسباب تفكك الأسرة التي ذكرت في هذا البحث .

الطلاق — انفصال الزوجين — وفاة أحد الوالدين — زواج أحد الوالدين مرة ثانية — الحياة الزوجية غير الشرعية — المرض .

ومما هو جدير بالملاحظة أن نسبة حالات الطلاق والانفصال تعادل نسبة وفاة أحد الوالدين ، مما جعل بعض الباحثين يذهبون إلى أنه ليس الطلاق في حد ذاته هو السبب في تشويه نمو الطفل الانفعالي وانحراف سلوكه بل العامل الأساسي هو حرمان الطفل من أحد والديه سواء كان هذا الحرمان نتيجة الطلاق أو الوفاة .

لا شك في صحة هذا الرأي غير أنه ناقص ولا يذهب إلى ما وراء الأرقام للبحث عن أوجه الاختلاف بين آثار الطلاق وآثار الوفاة في نفسية الطفل وفي نوع علاقته مع من يعيش معه من الوالدين .

فكثيراً ما يحدث أن يصبح الطفل بين الوالدين المطلقين وسيلة من وسائل الضغط أو الإغراء ومجالاً للمنافسة بينهما ، محاولاً كل منهما أن يوحي إلى الطفل بواسطة الهدايا والوعود أنه موضع حبه ورعايته فإذا كان الطفل يعيش مع أمه فيحاول الأب

بجميع الوسائل اجتذاب حب الطفل وتنفيره من أمه . فيظل الطفل يعانى من والديه ومن اتجاهاتهما الانفعالية المنحرفة .

وقد يحدث أن يستغل الطفل الحالة الشاذة الناشئة من طلاق والديه فيحاول التلاعب بهما لإرضاء أنانيته ونزواته فيضيف إلى ما أصابه من انحراف واضطراب فى نموه الوجدانى اتجاهات سلوكية شاذة ستعوق فى المستقبل توافقه الاجتماعى وتعرضه لألوان جديدة من الحرمان والإحباط عندما تواجهه مواقف معقدة تتطلب منه قسطاً غير يسير من المرونة والأمانة والتضحية .

غير أنه يجب علينا ألا نعمم بسرعة ، خاصة ونحن بصدد موقف تتفاعل فيه عدد كبير من العوامل قد نجهل بعضها . فآثار الطلاق على الأطفال قد تختلف من حالة إلى أخرى كما قد تختلف آثاره على الزوجين .

كما يجب أن نقول إنه لا يكفى أن تكون الأسرة فى ظاهرها متماسكة لكى نقول بأن تنشئة الأطفال ستكون حتماً صالحة وجيدة . فالمواقف السلبية فى التربية لا تجدى بل هى ضارة . فهناك المجهود الإيجابى الذى يجب بذله باستمرار لإحكام تربية الطفل على أسس صالحة حتى ينشأ متزناً ناضجاً متوافقاً فى مجتمعه .

فالأم التى تدلل طفلها وتعامله معاملة ضعيفة غير حازمة

قد تسيء إلى طفلها إساءة تفوق ما قد يلحقه من أثر الطلاق أو حرمانه من والده بسبب الغياب الطويل أو الوفاة . فواجب الأم أو الأب أن يتساءل دائماً ما هي أحسن الوسائل في هذه الظروف أو تلك الظروف لكي أضمن لطفلي تربية أخلاقية سليمة وبالتالي لكي أضمن له مستقبلا سعيداً .

١٠ — الزواج المثالي :

عندما يتناول عالم النفس موضوع الزواج بالبحث والدراسة في ضوء الحالات التي تعرض عليه نجده يميل إلى إبراز العوامل التي تجعل من الزواج مهمة عسيرة شاقة ، مشيراً إلى نواحي الشذوذ والانحراف ، متحدثاً خاصة عن أسباب الشقاق والنفور وعدم التكيف بين الزوجين . ومن اليسير تعليل مثل هذا الاتجاه لاهتمام السيكولوجي بالنواحي العملية وبتقديم العلاج للمشكلات التي يستشار فيها . ثم إنه من المعلوم أن تحليل الظواهر السوية وكشف العوامل التي تعينها أصعب بكثير من تحليل الظواهر المرضية الشاذة وذلك لانسجام هذه العوامل بعضها مع بعض واختفائها وراء النتيجة النهائية في حين أن المرض يفكك الظاهرة ويكون بمثابة التجربة العلمية التي يقوم بها العالم لتغيير الظروف والشروط .

فقد قيل بحق إن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها وكذلك

يبدو الزواج الهادئ السعيد أمراً يسير التفسير لأن تفسيره يتلخص فى عبارة واحدة وهى أن كلا من الزوجين وفق فى اختيار الآخر . غير أن هذا التفسير عديم الفائدة فى الوجهة العملية فالأمر الذى يهمنا هو معرفة الشروط التى يجب توافرها لكى يوفق كل من الزوجين فى اختيار الآخر .

أما فى حالات الزواج الفاشل فإن الاضطراب الذى يصيب الحياة الزوجية من شأنه أن يبرز بعض العوامل بصورة واضحة فيسمح بدراستها وتحليلها وبالوقوف على نواحى التضخم أو النقص أو الانحراف . وقد سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن المشكلات التى تعترض الزوجين فى مستهل حياتهما الزوجية ثم عن الغيرة وبعض عوامل تصدع الأسرة . وعن الطلاق وأثره فى مصير الأطفال من الوجهة النفسية والاجتماعية. وقد يبدو لنا فى ضوء هذه الدراسة أن تحقيق السعادة والوئام فى الزواج أمر شاق جداً مما قد يدفع البعض إلى التشاؤم واليأس . غير أنه يجب أن نذكر أن معرفة أسباب المرض والانحراف هى فى الوقت نفسه معرفة أسباب الصحة والسواء، ومعرفة حقائق الأشياء من أنجع الوسائل لمحاربة التشاؤم وبعث التفاؤل فى النفوس . ونود اليوم أن نستخلص من دراسة الحالات الشاذة أهم الشروط لتحقيق السعادة فى الزواج وسيتبين لنا أن الزواج الناجح السعيد ليس أسطورة من الأساطير بل أمر

فى وسع الطبيعة البشرية أن تحققه بشرط أن نفهم جوهر هذه الطبيعة وما يلائمها من نظم اجتماعية، وبشرط أن نعمل بكل إخلاص لتهيئة الظروف المناسبة لتنمية جميع إمكانيات الإنسان ولصيانة النظم الاجتماعية الكفيلة بتنمية هذه الإمكانيات إلى أقصى حد .

لا شك فى أن الزواج نظام يخضع لقيود اجتماعية معينة وأن الرابطة التى تربط بين الزوج والزوجة يجب أن تكتسب صفة شرعية . وقد اتخذ الزواج فى تاريخ الإنسانية صوراً مختلفة تحت تأثير بعض العوامل الاقتصادية أو الدينية غير أن هناك صفة ثابتة تلازم الزواج فى جميع المدنيات ، القديمة والحديثة ، وهذه صفة الدوام والاستقرار . فالرابطة الزوجية رابطة مستديمة لا يقطعها إلا الموت .

ثم يتضح لنا من دراسة التاريخ وتطوّر الوعى الإنسانى أن الاتجاه السائد فى تنظيم الحياة الزوجية هو الانتقال من نظام تعدد الزوجات إلى الزواج بواحدة . وليس من الغريب أن تكون المرأة نفسها هى التى تطالب بأن تكون شريكة الرجل الوحيدة ، عندما تدرك أنها ليست سلعة اقتصادية أو وسيلة من وسائل إرضاء شهوة الرجل بل غاية فى ذاتها ، لها من حيث إنها إنسان ، نفس حقوق الرجل من احترام وكرامة .

والآن علينا أن نطرح السؤال الآتى : هل صفة دوام

رابطة الزواج حتى الموت ومطالبة المرأة بأن يكون الزواج بواحدة من الأمور التي أحدثها تطوّر الإنسانية ونمو الوعي النسائي أم هي متأصلة في الطبيعة البشرية وأن التطوّر الذي نشاهده اليوم هو مجرد بزوغ لأصول موجودة في طبيعة الإنسان .

للرد على هذا السؤال يجب أن نستطلع رأي علماء النفس . فمعظمهم يعتقدون أن صفة الدوام وميل المرأة إلى أن تكون هي الزوجة الوحيدة جزء من الطبيعة البشرية. فقد دلت الدراسات التي تناولت المبادئ التي يخضع لها نمو الحياة الإنسانية على أن هذا النمو ، عندما يكون سوياً ، يرمي دائماً إلى تحقيق هدف نهائي مستقر . فالدوام والثبات والاستقرار من دلائل النضج الوجداني والعقلي ، أما الشخص المنحرف ، غير الناضج فإنه يكون دائماً في حالة تردد وشك . متقلب المزاج ، غير مستقر في سلوكه ، غير ثابت في عمله ، قد يعتقد أنه أرقى من غيره لأنه يتمتع بحريته كيفما شاء ، والواقع أنه أسير نزواته ؛ واندفاعه إلى العمل لا يدوم طويلا لأنه لا يحسن اختيار الهدف بل يعجز عن إدراك الأهداف الإنسانية العليا . فقانون النمو السوي إذن هو الاتجاه نحو تحقيق هدف معين .

وهذا القانون ينطبق أيضاً على الحياة الجنسية . فالإنسان يميل إلى تحقيق صورة ثابتة مستقرة من العلاقة الجنسية وهذه

الصورة تتحقق فى الزواج الدائم المستقر .

وبجانب هذا الميل إلى الثبات والاستقرار يوجد ميل آخر يميز العقل الإنسانى هو رد المتعدد إلى الواحد والبسيط وإرجاع الأنواع المختلفة إلى نوع واحد ومحاولة الكشف عن مبدأ واحد للتفسير والتعليل . وليست هذه النزعة إلى التوحيد مقصورة على التفكير الفلسفى والعلمى بل هى تسيطر أيضاً على حياتنا العملية . ثم يجب أن نذكر أن لبّ الزواج ليس الحب وحده بل أمر يفوق الحب فى عمقه وشموله . إن عالم الحب مغلق فى حين أن عالم الزواج متجه نحو الخارج نحو عالم النشاط والإنتاج. ومن الخطأ أن يعتقد بعض الرجال أن الزوجة تحدّ من حرية الزوج. إن مهمة الزوجة أن تتوسط بين زوجها وبين العالم الخارجى ، أن تزيد من قدرته وكفاءته . فرضاها وتقديرها لنشاط زوجها فى مهنته من أهم أسباب نجاحه فى كفاحه اليومى .

فالرجل الذى يحجم عن الزواج خوفاً من فقدان حريته لا يفهم معنى الحرية الحقة . فالحرية فى نظره هى عدم المسئولية . أما الحرية الحقة التى يتمتع بها الرجل المتزوج المتحد بزوجته بكل إخلاص ووفاء هى شعوره بالطمأنينة وبأنه يعيش فى سلام مع نفسه ومع العالم .

وهنا تتضح لنا عظمة الرسالة الملقاة على المرأة ، رسالة

النهوض بالإنسانية والمحافظة على كرامتها والعمل على إسعاد الأجيال القادمة . فعليها كأم أن تنمي فى أولادها روح الواجب ، روح إنجاز العمل ومواصلته حتى تحقيق الهدف ، أن تنمي فيه الشعور بأن الحياة تصبح عديمة المعنى إن لم تجذبها أهداف عالية . بهذه الكيفية ينضج الطفل تدريجاً حتى يدرك قيمة الثبات وإنجاز العمل وقيمة الإخلاص الدائم للمبادئ التى تعلمها .

وعلى المرأة كزوجة أن تزيد زوجها ثقةً فى نفسه وأن توفر له أسباب النشاط المثمر المنتج وأن تجعله يشعر أنه فى وسعها أن تملأ حياته وأن تحقق كل ما كان يتمنى من سعادة وهناء فى حياته الزوجية .

١١ ـــ الوفاء فى الزواج المثالى :

إن التحليل العلمى بطبيعة الرجل والمرأة من الوجهتين الجسمية والنفسية يؤدى بنا إلى نتيجة هامة وهى أن الزواج ليس أمراً عرضياً ، يوجد فى ظروف اجتماعية معينة ، ويتغير ويتلاشى إذا تغيرت هذه الظروف ، بل هو أمر ملازم لطبيعة الإنسان وعنصر جوهرى ضرورى لكى تكتمل الحياة البشرية . والزواج فى لبه وأساسه هو قبول كلٍّ من الرجل والمرأة أن يعيشا معاً حتى الموت فى ظل الشرع والأخلاق ، أى أن معنى

الزواج يستلزم حتماً معنى البقاء والدوام والاستقرار . غير أن المهم هو ليس تحقيق الدوام والاستقرار بطريقة خارجية مادية على الرغم من الشقاق الداخلى وتوتر الحياة الزوجية بل المهم هو أن يقوم الاستقرار والدوام على أساس من الوئام والتفاهم وعلى نية صادقة قوية للمحافظة على هذا الوئام ولتقوية هذه الرابطة الجسمية والمعنوية فى آن واحد التى تجعل من الزوج والزوجة وحدة متماسكة متضامنة الأطراف . ويمكن تلخيص جميع الشروط التى تضمن بقاء هذه الوحدة وتنميتها فى كلمة واحدة : الوفاء .

وكما أن هناك صوراً مختلفة لحالات الزواج التى تبدو لنا مستقرة إذا نظرنا إليها من الخارج يوجد أيضاً صور مختلفة للوفاء . فبجانب الوفاء الخالص الحرّ الذى لا تشوبه شائبة توجد أشكال من الوفاء المزيف أو من الوفاء السلبى الذى فقد روح الإخلاص أو من الوفاء المصطنع الكاذب الذى لم يعد سوى قناع لإخفاء ما وراء ه من انحلال وموت .

ولكى نفهم تماماً طبيعة الوفاء الخالص الذى يقوم عليه الزواج المثالى يجدر بنا أن نقف قليلا عند طبيعة الزواج من الوجهة السيكولوجية وأن نكشف عن سمته الجوهرية بعد أن نستعرض أهم عناصره كما تبدو لنا خلال خبرتنا النفسية .

لا شك فى أن الزواج المثالى يستلزم وجود عنصرين

أساسيين هما الجاذبية الجنسية أولا ثم الحبّ . غير أن الزواج المثالى لا يمكن أن يقوم على الجاذبية الجنسية وحدها لأنها معرضة للتغير والزوال كسائر الأمور الحسية ولا بدّ من أن تدعمها عاطفة الحبّ . وحتى الحب وحده لا يكفى لإقامة الزواج المثالى لأنه هو أيضاً عرضة للتقلب والزوال بل للانقلاب إلى ضده خاصة عندما يأخذ صورة الولوع والغرام . فالحب الذى لا يندمج فى الحياة الزوجية ولا يستمد منها أسباب النمو والبقاء هو بمثابة مغامرة يستسلم لها الإنسان دون وعى أحياناً ودون أن يدرى أبداً كيفية تطورها ووقت انتهائها ، فالحب من حيث هو مجرد اندفاع عاطفى جانب غريزى لا إرادى ولهذا السبب قد يصاب بتطورات فجائية تؤدى به إلى الفتور والزوال أو تحوله إلى مأساة مؤلمة . أما الحب فى ظل الحياة الزوجية فإنه يكتسب روحاً جديدة لأن الزواج مهمة جدّية تقوم على جانب كبير من التفكير الموجه ومن العزم الإرادى . ولذلك قد لا نلوم أنفسنا إذا خاننا الحب ولكن فشلنا فى الزواج يترك فينا دائماً الشعور بأننا أخطأنا وأسأنا التصرف .

ويتضح لنا الفرق بين عالم الحب وعالم الزواج بالمقارنة بين العلاقة السيكولوجية التى تربط بين العاشقين وتلك التى تربط بين الزوجين . فى الحالة الأولى يعيش العاشقان

فى عالم مغلق منعزل أنانىّ النزعة ، وينظران إلى الآخرين نظرة شك وريبة قد تتطوّر إلى نوع من الاتهام كأن يخشى كل منهما أن يفقد الآخر وفى مثل هذا الجوّ من التملك المطلق تنبت بذور الغيرة بسهولة ويصبح الوفاء أمراً مهدداً باستمرار .

أما فى حالة الحب الزوجى ، فلا يكون الزوج مستغرقاً فى حب الآخر كما هو الحال لدى العاشقين بل يكون عالم الزواج قابلاً للنمو والتوسع مرحباً بكل جديد وكلما اتسع نطاق الأسرة زادت أواصر الحب بين الزوجين قوة وشدة لأن الحب فى كنف الزواج يكون قد تطهر من النزعة إلى الامتلاك والاستئثار ليصبح قدرة لا نهاية لها للبذل والعطاء والتضحية .

فالشعور الذى يربط الزوج هو الشعور بأن كلا منهما للآخر لا بأن الواحد هو ملك الآخر ؛ الشعور بأن الإثنين مكملان لبعضهما بعضاً . وتنمو شخصية كل منهما فى جو من الحرية داخل هذه الوحدة التى نسميها بحق الوحدة الزوجية . والحياة الزوجية تطبع شخصية الزوجين بطابع خاص لا يمكن امحاؤه ، فيشعر كل منهما أنه أصبح جزءاً من كل ، إنه انضم إلى الجزء الذى يكمله ، إنه يكوّن معه المجتمع الأصغر هذه الخلية التى تدخل فى بناء المجتمع البشرى الأكبر . وبتكوين هذا المجتمع الأصغر المستقر يرضى الإنسان نزعة عميقة فى طبعه ، النزعة إلى الحياة الاجتماعية ، إلى الفرار من

العزلة والوحشة ، كما أنه يحقق صورة جديدة ، وإن كانت مختلفة فى عناصرها ، للرابطة التى كانت تربط الطفل بوالديه . إننا نعلم أن فى سن المراهقة يثور المراهق على القيود المفروضة عليه ويضيق ذرعاً بسلطة والديه فينشد التحرر من القيود ويطلب الاستقلال ولكن بعد سنوات يصبح عبء الحرية ثقيلا ويبدأ يشعر بالوحشة المعنوية رغم نشاطه وأعماله وعندئذ يدرك أنه ليس من الخير أن يظل الإنسان منفرداً فيسعى إلى اختيار شريك حياته ، إلى اختيار هذا الشخص دون غيره لكى يقضى حياته فى معيته . ولهذا السبب يكون الزواج من الوجهة السيكولوجية وفى ضوء معرفتنا لطبيعة الإنسان مطبوعاً بطابع الدوام وعدم الانفصام . فهو ليس مغامرة غرامية تسجل فى محكمة أو تدمغ بدمغة رسمية ، بل المرحلة الطبيعية التى يجب اجتيازها لإتمام الطبيعة البشرية وإرضاء نزعتها الاجتماعية العميقة .

ولكن على الرغم من أن الحب ليس هو أساس الزواج وجوهره ، غير أنه يؤدى دوره الضرورى فى جميع مراحل الحياة الزوجية . فبفضل الحب يكشف الإنسان من هو جدير بأن يشاركه فى حياته ، لأن عاطفة الحب وسيلة من وسائل المعرفة قد تفوق فى دقتها ونفوذها وسائل المعرفة العقلية البحتة . ولكن إذا كان يجب أن نحب الشخص الذى اعتبرناه

جديراً بأن يكون شريك حياتنا فليس معنى هذا أن كل من يحرك فينا عاطفة الحب يصلح لكى يكون زوجاً لأنه كما سبق أن قلنا ، الزواج مهمة يقتضى تنفيذها الحكم السليم والعزم الإرادى وروح المسئولية .

وبفضل الحب تتلون الحياة الزوجية بألوان زاهية فيشع فى الجو العائلى روح الأمل والتفاؤل وتصبح الأعباء اليومية أيسر وأخف وطأة . وعلى رغم من تطوره مع السنوات يظل الحب الزوجى مبعث الاطمئنان والهناء .

غير أن جوهر الزواج ليس الجاذبية الجنسية ولا الحب نفسه بل كما قلنا تحقيق هذه الرغبة العميقة فى الإنسان إلى أن يكون مع الشطر الثانى الذى يكمله . ولهذا السبب تظل الرابطة قوية بين الزوجين بعد أن تكون الحواس قد هدأت فسعادتهما هى أن يكون الواحد مع الآخر ، أن يجلس معه ، أن يعيش معه ، أن يشاركه جميع ظروف الحياة فى السراء والضراء . وليس المهم أن يعمل أحد الزوجين شيئاً ما لكى يثبت للآخر أنه يحبه كأن هناك شكاً يجب تبديده ، بل المهم أن يدرك بل أن يحس دون تفكير أنه مع زوجه . فلب الزواج الحقيقى هو هذا الشعور بالمعيّة وبأن هذه المعيّة أمر طبيعى لهذه الوحدة الزوجية التى اندمج فيها الطرفان اندماجاً كلياً . وفى مثل تصورنا هذا للزواج الحقيقى يصبح الوفاء أمراً طبيعياً ونتيجة

حتمية هذه المعية الزوجية لعدم وجود ما من شأنه إصابة الرابطة الزوجية بأى ضعف أو تفكك .

١٢ ـــ ألوان من الوفاء :

ليس من العبث أن نتحدث عن الزواج المثالى بحجة أن الأمور المثالية أمور خيالية بعيدة المنال فإن الإنسان ينزع دائماً بطبيعة عقله وفؤاده إلى ما هو أحسن وأرقى ، هو ينزع دائماً إلى تحقيق أهداف ؛ وقد لا يحسن أحياناً اختيار الهدف فتراه يبحث عن هدف آخر يجد فى تحقيقه إشباعاً لرغباته العميقة ولما ينشده من استقرار وثبات.

وعندما تحدثنا عن الزواج المثالى وصلته بالوفاء انتهينا إلى النتيجة الآتية وهى أن الزواج المثالى لا يعانى أبداً مشكلة الوفاء من حيث هو عمل خلقى يتطلب بذل المجهود لمواجهة الظروف المعادية والتغلب عليها وذلك لأن تعلق كل من الزوجين بالآخر وإخلاصهما القوى من شأنهما أن يحصنا الزوج والزوجة ضد أى إغراء جنسى يأتى من الخارج . وهذا لا يمنع الزوجين من أن يختلطا بالآخرين وأن يعاشرا الناس وأن يقدرا صفاتهم غير أن نظرة الزوج إلى أى امرأة أخرى أو نظرة الزوجة إلى أى رجل آخر تكون نظرة مجردة نزيهة غير مغرضة . تلك هى الحال فى الزواج المثالى الذى يكون فيه الزوجان

متحدين اتحاداً كلياً . أما إذا انحرف الزواج وأخذ يتصدع لسبب من الأسباب فعندئذ يصبح العالم الخارجى وما فيه من رجال ونساء مصدر إغراء وفتنة . وفى هذه الحالة يتخذ الوفاء شكلا جديداً فيصبح واجباً خلقياً بل عبء خلقياً قد يكون من العسير تحمله . وعندما يتخذ الوفاء فى شعور الزوج أو الزوجة شكل الواجب فهذا دليل على أن هناك خطراً يهدد الزواج من الداخل وأن تصدعاً قد حدث فى بناء الزوجية سيتسلل منه العدو الخارجى للقضاء على هذا البناء .

والنتيجة التربوية التى نستخلصها من هذا التحليل هى أنه لا يكفى تلقين المبادئ الخلقية من الخارج على صورة تدريب يعتمد على الضغط أو التخويف ، بل ليس من الكافى أن يقتنع العقل بسمو المبادئ الخلقية دون أن تصبح هذه المبادئ جزء لا يتجزأ من الشخصية والدافع الأساسى العميق الذى يعين السلوك ويوجهه . فليس من المنطق أن نتهاون مع الطفل أو مع المراهق إذا لجأ فى بعض تصرفاته إلى أساليب الغش والكذب والخداع ، سواء فى ألعابه أو فى تأدية واجباته المدرسية ثم نطالبه فيما بعد أن يكون وفياً مخلصاً فى عمله أو فى حياته الزوجية . فإن الاتجاه نحو الوفاء أو نحو الغدر والخيانة من الاتجاهات العامة التى تصبغ الشخصية بصبغتها الشاملة . فإذا كان أسلوب الشخص فى حياته هو الوفاء بالوعد

والإخلاص فى العمل فمن المحتمل جداً أن يكون وفياً مخلصاً فى جميع أمور حياته وأن يبدى هذا الاتساق الذى يميز الشخصية المتماسكة المتكاملة .

والحياة الزوجية عمل جدى متصل الحلقات لا يمكن الشروع فيه ومواصلة السعى بنجاح ما لم تكن الشخصية متسقة فى تصرفاتها متكاملة فى دوافعها وأهدافها متصفة بالوفاء والإخلاص .

فالاستعداد للزواج لا يبدأ قبل توقيع عقد الزواج بسنة أو بسنتين . قد تكفى هذه المدة للاستعداد المادى أو الاقتصادى ولكنها لا تكفى للاستعداد المعنوى . فكثيراً ما قلنا إن الزواج ليس نهاية عهد وبداية عهد جديد بل هو الامتداد الطبيعى لنمو المرء العقلى والخلقى . هو إحدى الغايات التى تحدد مراحل الحياة والتى لا تتحقق إلا بتحقق الغايات السابقة الممهدة لها وعلى ذلك فالاستعداد للزواج من حيث شروطه المعنوية والخلقية يبدأ منذ الطفولة المبكرة ويستند إلى التربية التى يتلقاها الطفل من والديه ، متأثراً بمختلف العوامل التى تؤثر فى تنشئته الاجتماعية والتى تكوّن فيه الاتجاهات والأساليب التى سوف يستخدمها فيما بعد فى معاملاته مع الآخرين . فإذا شبّ الطفل وفياً مخلصاً فمن المرجح أن يظل هكذا فى المستقبل عندما يشرع فى بناء أسرته الجديدة .

وعندما يصبح الوفاء من مقومات الشخصية وطبيعة ثابتة في الإنسان فلا يعود يشعر الزوج أو الزوجة أن الوفاء واجب أو عبء بل أمر طبيعي تستلزمه طبيعة الزواج ، أى أنه والزواج شيء واحد ، جوهر واحد .

ولا يصبح أمر الوفاء مشكلة من المشاكل إلا عندما ينحرف الزواج عن صورته المثالية ، وعندما تتحول الرابطة الزوجية من رابطة معنوية روحية إلى رابطة شكلية تقوم على المنفعة أو حتى على احترام التقاليد . فى هذه الحالات قد تبدو الحياة الزوجية حياة هادئة سعيدة موفقة ولكن إذا دققنا النظر لوجدناها حياة فارغة فاترة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، فالوفاء فى مثل هذه الحالة أشبه ما يكون بالهدنة التى تقوم بين فريقين من المحاربين فيتعهد كل فريق بأن يحترم شروطها . غير أن هذه الهدنة لا يمكن أن تتحول إلى سلم حقيقى بل هى أقرب أن تنقلب إلى شجار وحرب .

حياة هادئة فى الظاهر ولكن لا عن انسجام فى النشاط بل عن فراغ وعدم اهتمام ، هو الهدوء الذى يخيم على المقابر وفى مثل هذه الحياة الزوجية التى انعدم فيها الابتكار والتجديد يدور الزوجين كالأشباح حول مقبرة الحب . والوفاء بينهما وفاء سلبى لا عاطفة فيه ولا حيوية .

وكذلك لا وجود للوفاء فى الحالات التى يكون فيها

الزواج عبارة عن صفقة تجارية قائمة على تبادل المنفعة وخاضعة لشروط معينة : قيود من ناحية حرية مطلقة من ناحية أخرى . فمثل هذا الاتفاق ليس جديراً بأن يسمى زواجاً والإخلاص المقيد بشروط ليس إخلاصاً بل ضرباً من الحساب النفعى .

وبين هذين الطرفين — طرف الجمود من جهة وطرف الإباحية من جهة أخرى — يوجد الزواج غير المستقر حيث تنبعث مشكلة الوفاء باستمرار فى جوّ من الحذر ومن الغيرة الكامنة . فكل من الزوجين عاجز من جهة عن التمسك الصارم بالتقاليد وبالأوامر الخلقية ومن جهة أخرى عن تحمل عبء الحرية الكاملة والاستهتار . فهو يعيش فى جو من القلق لا يدرى ما إذا كان يجب الرجوع إلى تقاليد الماضى أو الاتجاه نحو نداء المستقبل الغامض .

وأمثال هذه الحالة كثيرة جداً وهى ليست إلا صدى للأزمة الروحية والخلقية التى يعانيها المجتمع فى الوقت الحاضر فقد زاد عدد الرسل الذين يوجهون نداءهم إلى الإنسان الحديث واعدين إياه بأن يضمنوا له السعادة والاطمئنان إذا استمع إليهم ، فهذا يتحدث باسم العلم وذاك ينادى باسم الدين وثالث يستوحى الفلسفة ورابع يشيد بمبادئ سياسية واجتماعية جديدة وهناك من يتكلم باسم الفن داعياً إلى الحرية المطلقة إن لم يكن إلى الفوضى والإباحية .

والإنسان اليوم حائر بين هذه النداءات المختلفة المتضاربة وليس من الغريب أن تضطرب القيم المعنوية وأن يصل هذا الاضطراب إلى داخل الأسرة فيؤثر أثره فى الحياة الزوجية جاعلا مهمة تحقيق الوفاق بين أعضاء الأسرة أمراً شاقاً عسيراً .

والواقع أن المذاهب المتطرفة أو التى تنحصر فى ناحية دون الأخرى من نواحى الطبيعة البشرية تعجز لتطرفها أو لقصر نظرها عن أن تقدم لنا حلاً وافياً لمشكلات العصر . فلا بدّ من أن ننظر إلى الإنسان نظرتنا إلى وحدة حية معقدة يجب أن تراعى فيها نواحيها المادية والعقلية والروحية فى آن واحد . أن نراعى فيما يختص بالموضوع الذى نعالجه ما يقتضيه الجنس والحب والزواج فى آن واحد .

الفصل الرابع

فى سبيل التكامل النفسى

١ ــ تكامل شخصية المرأة :

ليست الطبيعة البشرية بسيطة كما يتصورها عامة الناس ، والملاحظة السطحية لا تعطينا عنها إلا صورة ناقصة مشوهة . كما أن الطبيعة البشرية ليست خاضعة لقوة واحدة ولا تسير فى اتجاه واحد . فى طريق ممهد مستقيم ، بل هى معقدة للغاية وتتنازعها قوى مختلفة ، كثيراً ما تكون متضاربة ، وإن كان فى قدرتها فى نهاية الأمر وبعد مشقة كبيرة أن تتقدم نحو هدف واحد تتمثل فيه إلى حدّ ما الأهداف الجزئية التى كانت تجتذبها خلال المراحل التى تقطعها من الطفولة إلى النضج .

وعندما تنتظم الأهداف الفرعية فى الهدف الأكبر وتنسجم الدوافع بعضها مع بعض تكون الشخصية قد بدأت تحقق تكاملها وتنطبع بطابع الوحدة والتماسك .

هذا الوصف العام لتكامل الشخصية ينطبق على الرجل والمرأة على السواء ، ولكن إذا دققنا النظر وراعينا الفوارق والاختلافات

التى تميز بين الرجل والمرأة فإننا نجد أن تكامل شخصية المرأة يخضع لظروف خاصة بطبيعة المرأة من جهة ومن جهة أخرى خاصة بالتطور الاجتماعى والاقتصادى فى عصرنا الحديث .
وهذه الظروف الخاصة تجعل عملية تكامل الشخصية فى المرأة عملية معقدة عسيرة إذا قيست بتكامل شخصية الرجل .
فمن جهة نلاحظ أن تكوين الطبيعة النسوية يساعد المرأة على تحقيق النضج والتكامل بنسبة كبيرة من السهولة والتماسك ، فى حين أننا نلاحظ من جهة أخرى أن بعض الظروف الاجتماعية التى تحيط بحياة المرأة الحديثة تعرقل عملية التكامل وتثير العقبات فى طريقها . فمن الواجب إذن على كل من يريد معالجة مشاكل المرأة بطريقة حكيمة ناجحة أن يقف بوضوح على جميع مقومات الطبيعة النسوية وأن يبحث فى كيفية تعديل الظروف الاجتماعية بحيث تتفق مع هذه الطبيعة وتساعدها على النمو والازدهار .

فمشكلة تكامل الشخصية عند المرأة تقتضى أن ننظر أولاً فى العوامل الطبيعية الفطرية التى من شأنها تسهيل عملية التكامل ثم ننتقل إلى النظر فى الظروف الاجتماعية الراهنة التى تحول إلى حد ما دون تحقيق التكامل المنشود .

ولنبدأ الآن بالتحدث عن النقطة الأولى بطرح السؤال الآتى :

هل يصبح القول بأن المرأة تجد فى طبيعتها ما يساعدها أكثر من الرجل على تحقيق النضج والتكامل[1] ؟

ذكرنا فى بدء هذا الفصل أنه كلما وجد هدف أكبر وأعلى تندمج فيه الأهداف الجزئية كانت عملية التكامل أيسر تحقيقاً . ويزداد هذا اليسر كلما كان هذا الهدف واضحاً فى الشعور وكلما حدث هذا الوضوح مبكراً وأخيراً بقدر ما يكون هذا الهدف الأكبر قائماً على نزعة لاشعورية ودافع فطرى عميق .

ويمكننا أن نقول بكل اطمئنان إن هدف المرأة الأعلى هو أن تصبح أما وأن تساهم بلحمها ودمها وبكل جوارحها فى هذه الوظيفة السامية ، وظيفة خلق الحياة . إن حياة المرأة

---

(١) سبق أن وضحنا نظريتنا فى التكامل فى عدة مواضع نذكر منها :
« المنهج التكاملى وتصنيف الوقائع النفسية » مجلة علم النفس ، فبراير ١٩٤٦
« الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » مجلة علم النفس ، فبراير ١٩٤٧
« بعض نواحى علم النفس الجنائى من الوجهة التكاملية » مجلة علم النفس ، أكتوبر ١٩٤٨ .

« منهج التحليل النفسى وطبيعته التكاملية » مجلة علم النفس ، يونيو ١٩٥٢ .
« الأسس العلمية لفهم تكامل الشخصية » فى الفصل الثالث من كتاب « شفاء النفس » ، ص ١٠٢ — ١١٦ من الطبعة الثانية ، ١٩٥٣ .

« مبادئ علم النفس العام » الطبعة الثانية ، ١٩٥٤ ، ٤٢٠ ص — الناشر : دار المعارف بمصر .

مركزة تركيزاً عميقاً حول هذه الوظيفة ونزعتها إلى الأمومة متأصلة فى دوافعها اللاشعورية وتبدأ هذه النزعة تحدث أثرها منذ الطفولة فى ألعاب البنت الصغيرة وفى سلوكها إزاء من هم أصغر منها . وهى لا تكاد تخرج من مرحلة الطفولة حتى تحدث تغيرات عميقة واضحة فى شكل جسمها وفى سلوكها الخارجى هذا فضلا عن التمهيد الفسيولوجى لوظيفة الأمومة المقبلة . فالمرأة هى بحق حارسة الحياة وهى حريصة على المحافظة على هذه الوديعة المقدسة .

نعم إن الرجل يساهم بدوره فى خلق الحياة ومساهمته ضرورية . غير أنه مجرد مخصب إذا نظرنا إليه من الوجهة البيولوجية البحتة ، وأهملنا إلى حين الجانب السيكولوجى والجانب الاجتماعى . ولكن على كل حال وحتى إذا راعينا هذين الجانبين لا يمكننا القول بأن الرجل مركز حول غريزة الأبوة بقدر تركيز المرأة حول غريزة الأمومة ، بل لا يحق لنا أن نتحدث عن الأبوة على أنها غريزة فهى عاطفة أكثر منها غريزة وككل العواطف فى حاجة إلى تربية ورعاية لكى تنشأ وتقوى ، وكل ما يمكن التحدث عنه من الوجهة الغريزية فى الرجل هو غريزة التخصيب لا غير . ومساهمة الرجل فى خلق الحياة مساهمة عابرة لا تترك فى جسمه أثراً ملحوظاً فى حين أن جسم المرأة يتأثر تأثيراً بليغاً تهيئة لنمو الطفل مدة الحمل .

ويلاحظ فى بعض الحيوانات كالحشرات أن الذكر يموت عقب قيامه بوظيفة التخصيب وتركز الطبيعة كل عنايتها حول الأنثى وفى هذا دليل على قيمة الأنثى وقيمة مساهمتها فى بقاء الجنس .

فالمرأة تجد فى غريزة الأمومة المركز أو المحور الذى سيوجه جميع دوافعها وينظمها بصورة متسقة منسجمة وعندما نقول جميع الدوافع نقصد ما نقول ولا نستثنى منها شيئاً مما ينتمى إلى الحياة العاطفية والحياة الاجتماعية والروحية . فإن كانت الأمومة هى مركز نشاط المرأة فإن هذا المركز لا يتعارض فى صميمه مع أى نشاط آخر من شأنه تكملة الطبيعة البشرية فى نواحيها العاطفية والروحية ، بل على العكس من ذلك فإن ألوان النشاط الثقافى والاجتماعى تستمد من هذا المركز قوتها الدافعة وطاقتها الإبداعية . فالمرأة لاتحادها العميق بالطبيعة ولكونها ينبوع الحياة تنمو وتكتمل بفضل قوة داخلية أصلية كالشجرة التى تحمل الأزهار ثم الثمار لأن من طبيعة الشجرة أن تكسوها الأزهار والثمار . أما الرجل فهو بالقياس إلى المرأة فى حالة حيرة وتردد تتجاذبه أهداف مختلفة قبل أن يوفق إلى تحديد هدفه الأكبر فى الحياة ، وعندما يوفق إلى ذلك فكثيراً ما يكون استقراره نتيجة لضغط الظروف الخارجية . وحتى لما يصل إلى حالة الاستقرار والثبات فهو لا يزال مهدداً بالتشتت والتشرد

إن لم يكن فى سلوكه الخارجى فعلى الأقل فى تفكيره . ولهذا السبب كثيراً ما يكون الوفاء الزوجى فى نظر الرجل مشكلة تقتضى الحل والمعالجة فى حين أن الوفاء الزوجى فى نظر المرأة أمر طبيعى لا يتحول إلى مشكلة إلا عندما تتعطل وظيفة الأمومة أو تنحرف عن طريقها السوى ، أو عندما لا نجد بديلا لها فى شكل من أشكال الأمومة الروحية .

فوظيفة الأمومة هى التى تعيّن للمرأة المراحل التى تجتازها فى نموها الجسمى والوجدانى والاجتماعى ؛ هى كالقطب الذى يجذب إليه مختلف القوى والطاقات التى يتضمنها المجال الحيوى . وبقدر خضوع هذه القوى والطاقات أو بعبارة أخرى دوافع السلوك المختلفة ، لهذه الجاذبية تقترب عمليات النمو والتكيف من تحقيق تكامل الشخصية .

وسنتحدث فى الفقرة التالية عن أهم هذه الدوافع وعن العلاقات التى تربط بينها بحيث تجعل منها نظاماً مرتباً ترتيباً تصاعدياً تتفاعل فى داخله هذه الدوافع دون أن تقضى على المستويات التى تعيّنها مراحل النمو . ونود أن نقول منذ الآن إن الأنظمة الاجتماعية التى تساعد المرأة على أن تنمو نمواً سوياً والتى تساهم بالتالى فى إسعادها وإسعاد أسرتها تستوحى دائماً هذا النظام التصاعدى للدوافع والنزعات .

أما إذا خالفت الأنظمة الاجتماعية هذا النظام فعندئذ

تصبح عملية التكامل لدى المرأة عملية عسيرة شاقة مهددة بالانحراف والفشل . فالواجب الأول للمشرع أو للمصلح الاجتماعي أن يتعمق دراسة طبيعة الفرد ودراسة الفروق الموجودة بين الجنسين قبل أن يحاول تغيير النظام الاجتماعي وتعديله .

٢ — الحب بين الجاذبية والنداء :

لا شك فى أن الحضارة العصرية مدينة فى معظم مظاهرها إلى تقدم العلوم . وعندما نذكر كلمة العلوم يتجه ذهننا إلى العلوم الطبيعية وإلى هذه الفنون الميكانيكية العجيبة التى تنشئ المدن الجبارة وتتحكم فى قوى الطبيعة وتضاعف الإنتاج وتقرب المسافات البعيدة وتوفر كثيراً من المجهودات المضنية بفضل الأجهزة والآلات . وبما أننا نتحدث أيضاً عن العلوم النفسية والاجتماعية فقد نظن أن هذه العلوم تشبه العلوم الطبيعية فى دقة تفسيراتها وإحكام تطبيقاتها . ومع أننا نؤمن بالعلم وبخصب منهجه وبقيمة المعرفة العلمية غير أنه ليس من الحكمة أن يكون هذا الإيمان إيماناً أعمى وأن نتجاهل مواطن الضعف والنقص التى نشاهدها فى العلوم النفسية والاجتماعية . قد يعتقد بعض علماء النفس أنهم كشفوا عن سر الطبيعة البشرية عندما يفسرون لنا كيف تنشأ العواطف وكيف تتطور أو عندما يصفون لنا المراحل التى

يجتازها النمو العقلى . الواقع أن وصف مراحل النمو وربطها بعضها مع بعض لا يكفى لكى نفهم طبيعة الإنسان وجوهره . فلا بدّ من محاولة الوصول إلى الجوهر لكى تكتمل المعرفة العلمية . وتحقيق هذا الشرط لا بدّ منه عندما نكون بصدد الإنسان وربما كان الفلاسفة والشعراء الذين أدركوا هذه الضرورة أكثر من غيرهم أقرب إلى فهم جوهر الإنسان من العلماء أنفسهم .

وعندما نتحدث عن تكامل شخصية المرأة وعن العمليات التى تنتظم بمقتضاها الدوافع والنزعات علينا أن نواجه هذا السؤال الخاص بجوهر الطبيعة البشرية . فإن رأينا فى عملية تكامل الشخصية سيختلف تبعاً لردنا على هذا السؤال المبدئى هل الإنسان مجرد جسم مادى تضاف إليه بعض المظاهر النفسية بحيث تكون هذه المظاهر لاحقة للمادة وتابعة لها فى حدوثها ؟ أم أن الإنسان فى جوهره عقل ونفس وأن اتحاد هذه النفس بالجسم لا يحرم النفس من قدرتها على تقويم الجسم وتوجيهه . فلا بد أن نختار بين هذين الموقفين والأدلة المستمدة من تاريخ الإنسانية ومن العلوم النفسية والاجتماعية تجعلنا نختار الموقف الذى يقول إن جوهر الإنسان من طبيعة روحية وإن العقل هو مبدأ الحرية وأخيراً إن النضال القائم بين الحرية والضرورة أى بين العقل والمادة لا بد أن ينتهى بانتصار الحرية .

وسنبين الآن أهمية هذا الموقف فى موضوع تكامل شخصية المرأة . فإذا تتبعنا مراحل التكوين النفسى فى الإنسان وجدنا أن الدوافع الأولى التى تنشط فى حياة الطفل هى الدوافع الفسيولوجية كالحاجة إلى الطعام والنوم والحركة ثم تظهر الدوافع النفسية كالدوافع إلى استطلاع العالم الخارجى والحاجة إلى العطف والاطمئنان والاتجاهات العاطفية والميول الاجتماعية المختلفة . والسؤال الذى يفرض نفسه علينا هو هل جميع هذه الدوافع النفسية والاجتماعية هى نتيجة نمو الدوافع الفسيولوجية ونتيجة الاكتساب والتمرين فى البيئة العائلية؟ أم أن لهذه الدوافع النفسية مصدراً خاصاً مستقلا عن مصدر الدوافع الفسيولوجية وإن كان المصدران يتبدلان الأثر والتأثير ويتفاعلان معاً ؟

ولنطبق ذلك على المرأة ، ناظرين إلى حياتها كحركة واحدة تتجه خلال مراحل النمو نحو تحقيق وظيفتها العليا بل رسالتها العليا أى نحو تحقيق الأمومة . فالذى نشاهده هو أن شخصية المرأة تتكون من مراتب أو من أدوار ثلاثة فهى من الوجهة البيولوجية أنثى ومن الوجهة النفسية امرأة تنتمى إلى الجنس البشرى ومن الوجهة الاجتماعية زوجة وأم . وعندما يتناول العالم دراسة هذه الأدوار الثلاثة فإنه يركز نظرته للأنثى فى دراسة الغريزة الجنسية ونظرته للمرأة فى دراسة الحب ونظرته للزوجة فى دراسة نظام الزواج . هل بعد أن يفرغ

من دراسة الغريزة الجنسية سيتناول عاطفة الحب كأنها مشتقة من الغريزة الجنسية وأن الحب ليس فى جوهره إلا إعلاء للغريزة الجنسية، وأن نظام الزواج لا يرمى إلا إلى تنظيم نشاط هذه الغريزة . فإذا اتبع هذا الرأى فيكون قد بسط الطبيعة البشرية إلى أقصى حد وردها فى نهاية الأمر إلى الطبيعة الحيوانية البحتة وعندئذ يصبح ما نسميه بالتكامل عملية خداع وتمويه . لا شك أنه يوجد فى الحب أكثر مما يوجد فى الغريزة الجنسية والدليل على ذلك أن فى إمكان بعضهم الفصل بين الغريزة الجنسية وبين الحب مع العلم بأن المبدأ هو اتحاد الاثنين فى الإنسان . إن الغريزة الجنسية مشتركة بين الحيوان والإنسان أما الحب فهو خاص بالإنسان ، هو الشاهد على وجود المبدأ الروحى والعقلى فى الإنسان . وإذا كانت الحياة الحسية البحتة تسبق فى زمن ظهورها بزوغ عاطفة الحب فهى لا تفضل الحب ولا تسبقه فى ترتيب القيم لأن الحياة الحسية فى الإنسان وإن كانت شبيهة بحياة الحيوان فهى مصبوغة منذ البداية بصبغة إنسانية .

لا شك فى أن الغريزة الجنسية عنصر من عناصر الحب فهى التى تخلق الجاذبية بين الجنسين ولكن الجاذبية عامل تقييد وفيها إنكار للحرية فهى تفرض نفسها فرضاً وقد تتلاشى فجأة وبدون سبب ظاهر . وبجانب الجاذبية يوجد أمر آخر

جوهره يختلف عن جوهر الجاذبية لأنه ينطوى على الحرية والاختيار وهذا الأمر يمكن أن نسميه بالنداء،والحب يستجيب مختاراً حراً لهذا النداء وتلبيته لهذا النداء لا يكون بالاستيلاء والتملك بل يكون بالبذل والعطاء وإنكار الذات .

وأقصد هنا الحب الذى يتميز فى جوهره عن الغريزة الجنسية والذى ينتمى إلى هذا الجانب الروحى الذى يميز ــ شئنا أو لم نشأ ــ الإنسان عن الحيوان .

جاذبية من جهة ، نداء من جهة أخرى ؛ ضرورة وتقييد من جهة ، حرية واختيار من جهة أخرى . وآفة الجاذبية أنها تزول بعد الإشباع الذى لا يلبث طويلا حتى يترك وراءه فراغاً ومرارة وقلقاً . أما النداء الذى يستجيب له الحب والذى يدفع المستجيب إلى بذل نفسه وإنكار ذاته فلا يؤدى أبداً إلى هذا الإشباع وبالتالى إلى هذا الفراغ المرير بل يظل صوته مسموعاً لأنه صوت الأمل ومن يهب نفسه تلبية لهذا النداء تعود إليه هبته لأنه سيجد نفسه أكثر ثراء واكتمالا .

تلك هى الاعتبارات التى يجب أن نراعيها عندما نتحدث عن تكامل الدوافع الجنسية والدوافع العاطفية . فالعاطفة هى التى ، بعد بزوغها ، تنظم الدافع الجنسى حتى لا يسيطر على سلوك الإنسان . فالمرأة هى إنسان أولا قبل أن تكون حيواناً وهى ليست فقط مركز للجاذبية بل مصدر نداء روحى لا يجد

الرجل سعادته الحقة إلا فى تلبية هذا النداء .

وكذلك ليست الأمومة مجرد امتداد للغريزة الجنسية بل هى تنطوى على معانى تفوق فى سموها جاذبية الجنس . فكما أن الحب الكامل يضمن الحرية للفردين اللذين اتحدا فى عاطفة واحدة فالأمومة بدورها تضمن الحرية للوجود نفسه لأن فيها تتكامل الغريزة الجنسية والحب وبفضلها تنتصر الحرية على الضرورة والروح على المادة .

خاتمة

رسالة الأم

إذا أردنا أن نلقى نظرة إلى الطريق الذى قطعناه حتى الآن فى هذه الدراسة وأن نتطلع فى آن واحد إلى فجر جديد تبدد أضواؤه ما يجثم على قلب الإنسانية من ظلمات اليأس والتشاؤم فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا نحو الأم وأن نتحدث عن رسالتها السامية وعن الدور العظيم الذى تؤديه فى رفع المستوى الحضارى وفى توفير أسباب الاتزان النفسى والسعادة لرجال الغد .

استيقظ العالم العربى من سباته العميق وقام يدعو أبناءه إلى النهضة والتقدم واستثمار الثروات الطبيعية لتعميم النفع على الجميع ورفع مستوى المعيشة . ولكى تنجح الحركات الإصلاحية لا بد فى بادئ الأمر حصر رؤوس الأموال الأساسية التى ستثمر فى سبيل النهضة والإصلاح . وقد يتبادر إلى الأذهان أن رأس المال الأساسى هو المال أو الثروات الطبيعية على اختلاف أنواعها . الواقع أن هناك رؤوس أموال لا يمكن الحصول عليها بالمال ؛ وبدونها لا يمكن استغلال الأراضى والمناجم ومنابع الطاقة الطبيعية . ورأس المال الأساسى هو

الطاقة البشرية ، هو القدرة على العمل وعلى الإنتاج المنظم المستديم ، هو القدرة على تكوين علاقات إيجابية وإنتاجية بين أفراد المجتمع فى جو من الثقة والتعاون وفى حدود احترام القوانين الأخلاقية والصالح العام . وهذه الطاقة البشرية تتلخص فى كلمتين : الصحة الجسمية أولا ثم الصحة النفسية ثانياً وما يتبعهما من إقدام على العمل ومن القدرة على الابتكار والتجديد ومن رغبة فى الإنتاج وتحسين هذا الإنتاج فى جميع ميادين النشاط الإنسانى .

ومما لا شك فيه أن العبء الأكبر فى توفير هذه الطاقة البشرية التى نتحدث عنها يقع على عاتق الأم . ومما يدعم هذه الحقيقة الجوهرية البحوث العلمية التى قامت بها أخيراً المنظمة الدولية للصحة بالاتفاق مع لجنة الأمم المتحدة للشؤون الاجتماعية ، وقد قام بهذه البحوث الدكتور John Bowlby طبيب الأمراض العقلية ومدير إحدى العيادات السيكولوجية الكبرى بمدينة لندن . وقد نشر تقرير الدكتور Bowlby بعنوان : عناية الأم وصلتها بالصحة النفسية . ثم لخص هذا التقرير ونشر فى مجموعة Penguin بعنوان العناية بالطفل ونمو الحب .

وقد اهتم واضع التقرير بدراسة مصير الأطفال الذين حرموا من عناية الأم ونشأوا فى مؤسسات حيث كانت الخدمة موزعة بين عدد من الأفراد دون أن يكون هناك من يعتنى

بطريقة مستمرة بكل طفل على حدة .

وجد هؤلاء الأطفال كل ما يلزم من العنابة المادية ولكنهم حرموا مما هو أهم من العناية المادية أعنى من حب الأم ودفء صدرها . وقد أحدث هذا الحرمان نقصاً بليغاً فى تكوين شخصية الأطفال وفى قدرتهم على تكوين علاقات تعاونية مع الآخرين ، بل كوّن فيهم اتجاهات عدوانية نحو المجتمع فظهر آثارها فى سن المراهقة والشباب . ومما هو جدير بالذكر أن المشرفين على العيادات السيكولوجية لمسوا صعوبة كبرى فى معالجة مثل هؤلاء الأطفال المشكلين بل اعترف الكثير منهم بعجزهم التام عن تعويض ما فقده هؤلاء الأطفال من حب الأم وعن إصلاح ما سببه هذا الفقدان من شذوذ فى شخصيتهم . هذا يجعلنا نقرر من جديد هذه الحقيقة التى أخذ علماء النفس يرددونها بإلحاح وهى أن أهم مقومات الشخصية تتكون وتنمو فى السنين الأولى من حياة الإنسان وأن أساليب الحياة الانفعالية وما يتبعها من استعداد لبعض الأمراض الجسمية يكتسبه المرء فى طفولته حيث يكون اعتماده على الآخرين كبيراً جداً . والعامل الأساسى فى تكوين شخصية الطفل وفى توفير أسباب نموها السوى هو عناية الأم بطفلها ، وأهم وجه من وجوه هذه العناية ليس مجرد تغذية الطفل ورعاية صحته بل بذل الحب له وإحاطته بجو من العطف والاطمئنان . فحب

الأم لطفلها هو العامل المشترك فى جميع أنواع العلاقات التى تصل بينهما . ويجب أن تستمر هذه العلاقة بدون انقطاع فى السنوات الثلاث الأولى بوجه خاص . فتغيب الأم فترات طويلة من الزمن يحدث فى نفسية الطفل نوعاً من الحيرة والتردد وعدم الاستقرار مما يؤذى نشأته الأولى .

وإذا كان الأمر كذلك أى إذا كان لحب الأم لطفلها هذه الأهمية الجوهرية فى تكوين جيل صالح متزن ناضج فمن واجبنا أن نطرح من جديد على بساط البحث مشكلة عمل الأم خارج المنزل من الصباح إلى المساء وترك طفلها الصغير فى رعاية مربية مأجورة تتغير من وقت إلى آخر . أليس من حق الطفل على أمه أن يطالبها أولا بهذا الغذاء الروحى الذى بدونه يتحول الغذاء المادى إلى شىء منغص يصعب هضمه وتمثيله . ومن واجب الدولة أن ترعى شئون الأسرة بشتى الوسائل التشريعية بحيث تتمكن الأم من العناية بطفلها كما يجب . ومن واجب المؤسسات الاجتماعية والتعليمية أن تنظم دراسات للكبار لتثقيفهم بالثقافة السيكولوجية اللازمة لهم لكى يفهموا عملية نمو الشخصية فى الطفولة ويدركوا أهم العوامل التى تؤثر فى هذا النمو فيستعدون للحياة الزوجية مزودين بأصول فن التربية فيتجنبوا الأخطاء التى تسيئ إلى نفسية أطفالهم على غير وعى منهم .

تلك هي الرسالة الأولى التي يجب على الأم تأديتها لكي نضمن جيلا يمتاز بالاتزان الانفعالي والنضج العقلي . هذا هو رأس المال الأساسي الذي يجب أن نبني عليه صرح المستقبل .

هنالك رسالة أخرى تشمل جميع أفراد الأسرة على الأم أن تساهم بقسط وفير في تحقيقها ، هي خلق حياة عائلية حقة داخل المنزل يكون محورها حب الزوجين أحدهما للآخر وحرصهما على تحقيق سعادة الأطفال بتنشئتهم في جو من المودة المتبادلة ومن الاحترام للقيم الإنسانية العليا . وأول قيمة في نظرنا ، نحن في حاجة إلى الدفاع عنها وغرسها في قلوب الجيل الناشيء هي حب العمل واحترام الواجب والإحساس اليقظ بضرورة إنجاز العمل على خير وجه ممكن . والأم في بيتها وهي تقوم بأعباء واجباتها المنزلية دون تذمر ولا استياء هي أفصح مثل يقدم للأبناء لكي يشبوا على حب العمل وعلى بذل المجهود بالصبر والتأني .

إن الشرق لا يعوزه الإيمان ولا الحماس ولا القدرة على بناء الآمال الواسعة ولكن هو في حاجة ماسة إلى تنمية الرغبة في العمل ، العمل الدقيق المتقن الذي نبدأه لكي ننجزه لا لكي نتركه ناقصاً مشوهاً .

عاطفة متزنة ، شخصية ناضجة ، حياة عائلية حقة ، حب العمل والرغبة في إنجازه بدقة ونظام ، تلك هي الصفات التي

تطالب بها الأم العربية أن تحققها فى أفراد الجيل الناشئ . هناك بالطبع صفات أخرى عديدة كان يجب ذكرها غير أننا اقتصرنا على ما يبدو لنا أهم من غيره فى هذه المرحلة الدقيقة التى تجتازها الأمم العربية فى سبيلها إلى النهضة والتقدم . وربما يجدر بنا أن نذكر فضيلة أخيرة نعتقد أنها هامة جداً لنهضتنا الاقتصادية وعلى الأم خاصة تنمية هذه الفضيلة فى أبنائها أقصد روح التوفير . لا يمكن أن تصبح أمة من الأمم قوية سياسياً إن لم تكن قوية اقتصادياً . لا يمكن أن يكون اقتصادها قوياً بدون نشر روح التوفير بين أفرادها . قد لا يكون التوفير متيسراً دائماً ، خاصة فى الطبقات الفقيرة غير أن المهم هو ليس كمية ما يوفر بقدر ما هو روح التوفير ذاته وما يقتضيه من النظام والتدبير الحسن . والأم بدون شك ، عندما تكون شاعرة تماماً بخطر رسالتها ، أميل إلى التوفير منها إلى التبذير وعندما تعمل على تنمية روح التوفير فى أبنائها فهى فى الوقت نفسه تربى فيهم روح الاتزان وحب العمل وعادة التبصر فى عواقب الأمور وهى كلها خصال حميدة تقوم عليها نهضة الشعوب وسعادة الأفراد .

فهرست

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ١٠٦٩٢
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4800 – 2 ISBN

١ / ٩٤ / ٨٨

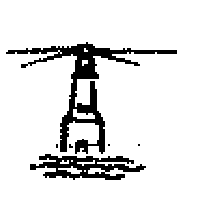
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

إن فهم العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس نفسي سليم هو الأساس لحياة أكثر دواما وأكثر سعادة بين جنسين لايستغني كل منهما عن صاحبه . ولاشك أننا ننشد الحب ، ولكننا نخاف .. كمن يخاف إرتكاب ذنب من الذنوب .

فهل الحب أثم ؟ وما هي العناصر اللازمة لاستكمال حب سوّى صحيح سعيد وكيف نجد السعادة في الزواج وكيف نتخلص من الغيرة التي تقتل النفوس .وأين السبيل إلى الزواج الوفي المثالي الذي قد يظنه البعض ضربا من الخيال ؟

إن هذا الكتاب يدلنا على طريق السعادة في الحب وفي الزواج ..





دار المعارف